مسألة الإمامة الخاصة والعامة وموضوع العصمة

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤ ﴾ .

أما تفسيرها بحسب:

. ابن كثير:

﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤ ﴾

يقول تعالى مُنَبِّهًا على شرف إبراهيم خليله (ع)، وأن الله تعالى جعله إماماً للناس يقتدى به في التوحيد، حتى قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي؛ ولهذا قال: ﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ ﴾ أي: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملَّة إبراهيم وليسوا عليها.. اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم، أي: اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي ﴿ فَأَتَمَّهُنَّۖ ﴾ أي: قام بهن كلهن كما قال تعالى:﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴾النجم: ٣٧ ، أي: وفى جميع ما شرع له، فعمل به (صلوات الله عليه)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۦٓۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾النحل: ١٢٠ - ١٢١ وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ

﴿ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ آل عمران: ٦٧ - ٦٨ .

وقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾ أي: بشرائع وأوامر ونواه ﴿فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ أي: قام بهن. قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: جزاء على ما فَعَل، كما قام بالأوامر وتَرَكَ الزواجر جعله الله للناس قدوة وإمامًا يقتدى به، ويحتذى حذوه.

وقد اختلف في تعيين الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم الخليل (ع) فروي عن ابن عباس قال: ابتلاه الله بالمناسك، وروي عنه قال: ابتلاه الله بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد؛ في الرأس: قَص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفَرْق الرأس. وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونَتْف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي (ص) قال: (الفطرة خمس: الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط).

وقال عِكْرِمة، عن ابن عباس أنه قال: ما ابتلي بهذا الدين أحد فقام به

كله إلا إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾، قلت له: وما الكلماتُ التي ابتلى الله إبراهيم بهن فأتمهن؟ قال: الإسلام ثلاثون سهمًا، منها عشر آيات في براءة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ المؤمنون: ١ إلى آخر الآية ، وعشر آيات في أول سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ المؤمنون: ١ وعشر آيات في الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الأحزاب: ٣٥ إلى آخر الآية، فأتمهن كلهن، فكتبت له براءة. قال الله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ النجم: ٣٧ .

وقال محمد بن إسحاق، عن ابن عباس، قال: الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهن: فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم، ومحاجَّته نمرود في الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلافه، وصبره على قذفه إياه في النار ليحرقوه في الله على هول ذلك من أمرهم، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده في الله حين أمره بالخروج عنهم، وما أمره به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله،

وما ابتلي به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه، فلما مضى على ذلك من الله كله وأخلصه للبلاء قال الله له: ﴿ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾على ما كان من خلاف الناس وفراقهم.

وقال ابن جرير كان الحسن يقول: أي والله، لقد ابتلاه بأمر فصبر عليه ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر، فأحسن في ذلك، وعرف أن ربه دائم لا يزول، فوجه وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما كان من المشركين، ثم ابتلاه بالهجرة فخرج من بلاده وقومه حتى لحق بالشام مهاجرًا إلى الله، ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة فصبر على ذلك. وابتلاه الله بذبح ابنه، والختان فصبر على ذلك.

وعن الربيع بن انس قال: الكلمات ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾، وقوله: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ البقرة: ١٢٥ ، وقوله:﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ وقوله: ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾ الآية، قال: فذلك كله من الكلمات التي ابتلي بهن إبراهيم.

وفي الموطأ وغيره، عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: إبراهيم (ع) أول من اختتن وأول من ضاف الضيف، وأول من استحد، وأول من قَلَّم أظفاره، وأول من قص الشارب، وأول من شاب. فلما رأى الشيب قال: ما هذا؟ قال: وقار، قال: يا رب، زدني وقارًا.

قال أبو جعفر بن جرير ما حاصله: أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميعُ ما ذكر، وجائز أن يكون بعض ذلك، ولا يجوز الجزمُ بشيء منها أنه المرادُ على التعيين إلاَّ بحديث أو إجماع. قال: ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له.

ولما جعل الله إبراهيم إمامًا سأل الله أن تكون الأئمةُ من بعده من ذريته، فأجيب إلى ذلك وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون، وأنه لا ينالهم عهد الله، ولا يكونون أئمة فلا يقتدى بهم ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، والدليل على أنه أجيب إلى طَلِبَتِهِ قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى

ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾العنكبوت: ٢٧ فكل نبي أرسله الله وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه .

وأما قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فقد اختلفوا في ذلك، فقال مجاهد لا يكون إمام ظالم يقتدى به. وعن ابن عباس قال: قال الله لإبراهيم: ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ فأبى أن يفعل، ثم قال: ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾وروي عن قتادة في قوله: ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ قال : لا ينال عهدُ الله في الآخرة ، فأما في الدنيا فقد ناله الظالم فأمن به، وأكل وعاش. وقال ابن أنس: عهد الله الذي عهد إلى عباده: دينه، يقول: لا ينال دينه الظالمين، ألا ترى أنه قال: ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ [الصافات : ١١٣] ، يقول: ليس كل ذريتك يا إبراهيم على الحق. وعن النبي (ص) قال: ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ قال: ((لا طاعة إلاَّ في المعروف)) .

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾

عن ابن عباس: قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ البقرة: ١٢٥ قال: يثوبون إليه ثم يرجعون. وحدث عبدة بن أبي لبابة قال: لا ينصرف عنه منصرف وهو يرى أنه قد قضى منه وطرًا.

قال الشاعر :

جعل البيتُ مثابًا لهم ليس منه الدهر يقضون الوَطَرْ

وقال سعيد بن جبير في الرواية الأخرى وعكرمة وقتادة :﴿ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي: مجمعاً﴿ وَأَمْنًا ﴾ أي: أمنًا للناس وقد كانوا في الجاهلية يُتَخَطَّف الناس من حولهم، وهم آمنون لا يُسْبَون.

ومضمون هذه الآية أن الله تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفًا به شرعًا

وقدرًا من كونه مثابة للناس، أي: جعله مَحَلاً تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه، ولا تقضي منه وطرًا، ولو ترددَت إليه كلَّ عام، استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم (ع) في قوله:﴿ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾إبراهيم: ٣٧ إلى أن قال: ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَاءِ ﴾[إبراهيم : ٣٧ -٤٠]، ويصفه تعالى بأنه جعله أمنًا، من دخله أمن، ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمنًا.

فقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه وأخيه فيه فلا يَعْرض له، وما هذا الشرف إلاَّ لشرف بانيه أولاً وهو خليل الرحمن، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا ﴾ الحج: ٢٦ ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ ﴾ آل عمران: ٩٦ - ٩٧ .

وفي هذه الآية الكريمة نَبَّه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده. فقال: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗى ﴾. وقد اختلف المفسرون في المراد بالمقام ما هو؟ فقال مجاهد عن ابن عباس: مقام إبراهيم الحرم كله. وقيل: مقام إبراهيم الحج كله (منى، ورمي الجمار، والطواف بين الصفا والمروة) ، وقال سفيان الثوري عن سعيد بن جبير: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗى ﴾ الحَجر مقام إبراهيم نبي الله قد جعله الله رحمة فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجارة.

وقال السدي: الحجر الذي وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم حتى غسلت رأسه. عن جعفر بن محمد عن أبيه سمع جابرًا يحدث عن حجة النبي (ص) قال: لما طاف النبي (ص) قال له عمر: هذا مقام أبينا إبراهيم؟ قال: نعم، قال: أفلا نتخذه مصلى؟ فأنزل الله، عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗى ﴾.

فهذا كله مما يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحَجَرُ الذي كان إبراهيم (ع) يقوم عليه لبناء الكعبة، لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل (ع) به ليقومَ فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار، وكلَّما كَمَّل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها

هكذا حتى تم جدارن الكعبة كما سيأتي بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل، وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفًا تعرفه العرب في جاهليتها؛ ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة اللامية:

ومَوطئُ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافيًا غير ناعل

وقد كان المقام ملصقًا بجدار الكعبة قديمًا، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك، وكان الخليل (ع) لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك؛ ولهذا -والله أعلم-أمر بالصلاة هناك عند فراغ الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه، وإنما أخره عن جدار الكعبة عُمَرُ بن الخطاب أحدُ الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين، الذين أُمرْنا باتباعهم، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله (ص) : ((اقتدوا باللَّذَين من بعدي أبي بكر وعمر)) . وهو الذي نزل القرآن بوفاقه في الصلاة عنده؛ ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة.

عن عائشة أن المقام كان في زمان رسول الله (ص) وزمان أبي بكر ملتصقًا بالبيت، ثم أخره عمر بن الخطاب. وعن مجاهد قال: قال عمربن الخطاب : يا رسول الله لو صلينا خلف المقام؟ فأنزل الله: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ فكان المقام عند البيت فحوله رسول الله (ص) إلى موضعه هذا. وهذا أصح من طريق ابن مَرْدُويه، مع اعتضاد هذا بما تقدم، والله أعلم .

ـ الشيخ مغنية:

﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

اللغة: الابتلاء الاختبار، والمراد به هنا التكليف، والكلمات مفردها كلمة، والمراد بها الأوامر والنواهي، ومنها تكليفه بذبح ولده، والمراد بأتمّهن هنا الطاعة والاستجابة،

فقد روي عن الإمام الصادق (ع) إن الله ابتلي إبراهيم بذبح ولده إسماعيل، فعزم على ذلك.

الإعراب: إبراهيم مفعول مقدّم، وربه فاعل مؤخر، والضمير عائد على إبراهيم، وهو مؤخر لفظاً متقدم رتبة، لأن رتبة الفاعل متقدمة على رتبة المفعول، وقال النحاة: لا يجوز تقديم الضمير لفظاً ورتبة، لأن من شأنه أن يعود على سابق إما لفظاً وإما رتبة ولا يجوز أن يعود على متأخر لفظاً ورتبة.

المعنى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ إبراهيم الخليل (ع) أبو الأنبياء تقر وتعترف بنبوته الديانات السماوية الثلاث. الإسلام والمسيحية واليهودية، ويعظمه مشركو العرب، لانتسابهم إلى ولده إسماعيل (ع)، ولأنهم خدمة الكعبة وحماتها التي بناها إبراهيم وولده إسماعيل.

بيّن الله سبحانه أنه أمر إبراهيم ببعض التكاليف لَذبحه ولده ـ مثلاً ـ فوجده أميناً وفياً فمعنى أتمهن امتثل وأطاع، وقد وصف الله إبراهيم بالوفاء في الآية ٣٧ من النجم:﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾النجم: ٣٧ .

(قال ـ اي الله ـ إني جاعلك للناس إماماً) هذه بشارة من الله لإبراهيم بالتفضيل عليه بالإمامة ابتداء، ومن غير طلب منه، جزاء لإخلاصه ووفائه وتضحيته.

(قال ـ أي إبراهيم ـ ومن ذريتي) هذا رجاء ودعاء من إبراهيم (ع) أن يمن الله سبحانه على بعض ذريته ـ لأن من هنا للتبعيض ـ بالإمامة، كما منّ عليه.. وهنا تتجلى عاطفة الوالد للولد، حيث طلب إبراهيم السعادة العظمى لبعض ذريته، ولم يطلبها من الله لنفسه، بل تفضل الله عليها بها ابتداء.

(قال ـ اي الله ـ لا ينال عهدي الظالمين) وهذا القول استجابة من الله لإبراهيم أن يتخذ أئمة من ذريته، على شريطة أن يكونوا مثله أوفياء أتقياء لأن الهدف من الإمام أن يمنع المعصية، فكيف يكون عاصياً.. ولست أرى كلمة أدل على عدل الإمام ورحمته بالمحكومين من قول علي (ع)، وهو خليفة المسلمين: «لقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، واصبحت أخاف ظلم رعيتي». حاكم يخاف ظلم المحكومين له،

وقوي يخشى استبداد الضعفاء به.. على الذي لا يبالي أسقط على الموت، أم سقط الموت عليه.. علي، وقد أصبح مصدر القوة والسلطة يخاف من رعيته.. وكان ينبغي العكس. كما هو المألوف المعروف.. إن هذا خارق للمعتاد، وكل خلاله من الخوارق والمعجزات.

الإمامة وفكرة العصمة: يطلق لفظ الإمام في اللغة على معان: منها الطريق: لأنه يقود السائر إلى مقصده، ومنها ما يقتدي الناس به في هداية، أو ضلالة، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾الأنبياء: ٧٣ .. وقال في آية أخرى: قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ القصص: ٤١ .

وقد يكون الإنسان إماماً إذا كان متبوعاً في شيء، ومأموماً تابعاً في شيء آخر.. هذا بحسب اللغة، أما بحسب الدين والشرع فإن الإمام يطلق على من يؤم الناس في الصلاة إلا أنه لا يستعمل في ذلك إلا مقيداً، فيقال إمام الجمعة والجماعة.. وإذا كان مطلقاً غير مقيد فإنه يستعمل في معنيين: الأول في النبي، ومرتبته أعلى مراتب الإمامة.

الثاني يستعمل في وحي النبي.. والإمام بمعنى إمامة النبوة والرسالة، وإمام الوصاية والخلافة متبوع في كل شيء غير تابع لغيره في شيء في زمن إمامته.

والإمام بمعنى النبي يفتقر إلى النص من الله بواسطة الروح الأمين، وبمعنى الوحي لا بد فيه من النص من الله سبحانه على لسان نبيه الكريم، وشرط هذا النص أن يكون بالاسم والشخص، لا بالصفات وصيغة العموم فقط، كما هي الحال في المجتهد والحاكم الشرعي. بل بالنص الخاص الذي لا يقبل التأويل، ولا التخصيص، ولا مجال فيه إطلاقاً للّبس، أو احتمال العكس، ومن هنا يتبين أن إطلاق لفظ الإمام من غير قيد على غير النبي، أو غير الوحي محل توقف وتأمل، وغير بعيد أن يكون محرماً، تماماً كإطلاق لفظ وحي النبي على غير الإمام المعصوم.

واستدل الشيعة الإمامية بقوله تعالى:﴿ جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾البقرة: ١٢٤ على أن

الإمامة لا تكون إلا بجعل من الله سبحانه، ويؤيده طلب إبراهيم منه جلّ وعزّ أن يجعل أئمة من ذريته، وإذا كانت الإمامة بالجعل منه تعالى احتاجت بحكم الطبيعة إلى النص منه.

وأيضاً استدل الشيعة الإمامية بقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ البقرة: ١٢٤

على وجوب العصمة للنبي والوحي، ووجه الدلالة أن الله قد بيّن صراحة أنه لا يعهد بالإمامة إلى ظالم، والظالم من ارتكب معصية في حياته مهما كان نوعها، حتى ولو تاب بعدها، حيث يصدق عليه هذا الاسم، ولو آناً ما، ومن صدق عليه كذلك فلن يكون إماماً.

وتشاء الصدف والظروف أن ينشأ غير علي في حجر الشرك والرجس، وعبادة الأصنام وأن ينغمس في أرجاس الجاهلية إلى الآذان، وأن لا ينطق بالشهادة إلا بعد أن عصي عوده، وبعد أن شبعت الأصنام منه، ومن سجوده لها، وشاء الله لعلي بن أبي طالب أن ينشأ في حجر النبوة والطهر، وأن يكيّفه محمد (ص) وفقاً لإرادة الله، وهو طري ندي، وأن ينزل الأصنام من على عروشها ويلقي بها تحت أقدام محمد.

وهنا سؤال نلقيه على كل عاقل منصف، ليجيب عنه بوحي من عقله ووجدانه، وهو: مال لقاصر ورثه عن أبيه، ولا بد له من ولي يحرص ويحافظ عليه، ودار الأمر بين أن نولي عليه رجلاً لم يعص الله طرفة عين مدى حياته، لا صغيراً، ولا كبيراً، وبين أن نولي عليه رجلاً عصاه أمداً طويلاً، وهو بالغ عاقل، ثم تاب وأناب، فأيهما نختار: الأول أو الثاني؟

ويكفي دليلاً على عصمة أهل البيت (ع) شهادة الله لهم بالعصمة في الآية ٣٣ من الأحزاب: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ الأحزاب: ٣٣ وتكلمنا عن العصمة مفصلاً عند تفسير الآية ٣٩.

ـ سيد قطب:

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

في هذه الآيات يرجع السياق إلى مرحلة تاريخية أسبق من عهد موسى، يرجع إلى إبراهيم وقصة إبراهيم على النحو التي تؤدي دورها في السياق، كما أنها تؤدي دوراً هاماً فيما شجر بين اليهود والجماعة المسلمة في المدينة من نزاع حاد متشعب الأطراف، إنّ أهل الكتاب ليرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحاق (ع) ويعتزون بنسبتهم إليه وبوعد الله له ولذريته بالنمو والبركة وعهده معه ومع ذريته من بعده، ومن ثم يحتكرون لأنفسهم الهدى والقوامة على الدين كما يحتكرون لأنفسهم الجنة. أياً كان ما يعملون.

وإن قريشاً لترجع بأصولها كذلك إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل وتعتز بنسبتها إليه وتستمد منها القوامة على البيت، وعمارة المسجد الحرام، وتستمد كذلك سلطانها الديني على العرب وفضلها وشرفها ومكانتها.

فالآن يجيء الحديث عن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، والحديث عن البيت الحرام وبنائه وعمارته وشعائره في جوّه المناسب، لتقرير الحقائق الخالصة في ادعاءات اليهود والنصارى والمشركين جميعاً حول هذه النسب وهذه الصِلات، ولتقرير قضية القِبلة التي ينبغي أن يتجه إليها المسلمون. كذلك تجيء المناسبة لتقرير حقيقة دين إبراهيم (التوحيد الخالص) وبعد ما بينها وبين العقائد المشوّهة المُنحرفة التي عليها أهل الكتاب والمشركون سواء، وقرب ما بين عقيدة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب (وهو إسرائيل الذي ينتسبون إليه).

وعقيدة الجماعة المسلمة بآخر دين ولتقرير وحدة دين الله واطراده على أيدي رسله جميعاً ونفى فكرة احتكاره من أيدي أمة أو جنس. وبيان أن العقيدة تراث القلب المؤمن لا تراث العصبية العمياء، وأن وراثة هذا التراث لا تقوم على قرابة الدم والجنس ولكن على قرابة الإيمان والعقيدة. فمن آمن بهذه العقيدة ورعاها من

أي جيل ومن أي قبيل فهو أحق بها من أبناء الصُلب وأقرباء العصب. فالدين دين الله وليس بين الله وبين أحد من عباده نسب ولا صهر.

ففي هذه الآيات يسير بنا القرآن الكريم خطوة خطوة من لدن إبراهيم (ع) منذ أن ابتلاه ربه واختبره فاستحق اختياره واصطفاءه وتنصيبه للناس إماماً إلى أن نشأت الأمة المسلمة المؤمنة برسالة محمد (ص) استجابة من الله لدعوة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام فاستحقت وراثة هذه الأمانة دون ذرية إبراهيم جميعاً، وذلك السبب الوحيد الذي تقوم عليه وراثة العقيدة، والإيمان بالرسالة وحسن القيام عليها والاستقامة على تصوّرها الصحيح.

ويبرز في العرض التاريخي: أن الإسلام بمعنى إسلام الوجه لله وحده، كما هو الرسالة الأولى وكان هو الرسالة الأخيرة هكذا إبراهيم وهكذا اعتقد من بعده إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط حتى أسلموا هذه العقيدة ذاتها إلى موسى وعيسى ثم آلت أخيراً إلى ورثة إبراهيم من المسلمين فمن استقام على هذه العقيدة الواحدة فهو وريثها ووريث عهودها وبشاراتها ومن فسق عنها، ورغب بنفسه عن ملّة إبراهيم فقد فسق عن عهد الله وقد فقد وراثته لهذا العهد بشاراته.

عندئذ تسقط كل دعاوى اليهود والنصارى في اصطفائهم واجتبائهم، لمجرد أنهم أبناء إبراهيم وحفدته وهم ورثته وحلفاؤه لقد سقطت عنهم الوراثة منذ ما انحرفوا عن هذه العقيدة وعندئذ تسقط كل دعاوى قريش في الاستئثار بالبيت الحرام وشرف القيام عليه وعمارته لأنّهم قد فقدوا حقهم في وراثة باني البيت ورافع قواعده بانحرافهم عن عقيدته ثم تسقط كل دعاوى اليهود فيما يختص بالقبلة التي ينبغي أن يتّجه إليها المسلمون فالكعبة هي قبلتهم وقبلة أبيهم إبراهيم.

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

يقول النبي (ص): اذكر ما كان من ابتلاء الله لإبراهيم بكلمات من الأوامر

والتكاليف فأتمهن وفاء وقضاء.

وقد شهد الله لإبراهيم في موضع آخر بالوفاء بالتزاماته على النحو الذي يرضى الله عنه فيستحق شهادته الجليلة: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾النجم: ٣٧ وهو مقام عظيم ذلك المقام الذي بلغه إبراهيم مقام الوفاء والتوفيه بشهادة الله عز وجل. والإنسان بضعفه وتصوره لا يوفي ولا يستقيم.

عندئذ استحق إبراهيم تلك البشري أو تلك الثقة.

﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾

إماماً يتخذّونه قدوّة ويقودهم إلى الله، ويقدمهم إلى الخير، ويكونون له تبعاً، وتكون له فيهم قيادة عندئذ تدرك إبراهيم فطرة البشر؛ الرغبة في الامتداد عن طريق الذراري والأحفاد ذلك الشعور الفطري العميق الذي أودعه الله الإنسان، فطرة البشر لينموّ الحياة وتمضي في طريقها المرسوم ويكمل اللاحق ما بدأه السابق وتتعاون الأجيال كلّها وتتساوق، ذلك الشعور الذي يحاول بعضهم تحطيمه أو تعويقه وتكبيله وهو مركوز في أصل الفطرة لتحقيق تلك الغاية البعيدة المدى وعلى أساسه يقرّر الإسلام تشريعه الميراث تلبية لتلك الفطرة وتنشيطاً لها لتعمل ولتبذل أقصى ما في طوقها من جهد.

﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾

وجاء الرد من ربه الذي ابتلاه واصطفاه، يقرّر القاعدة الكبرى التي أسلفنا إنّ الإمامة لمن يستحقونها بالعمل والشعور، وبالصلاح والإيمان، وليست وراثة أصلاب وأنساب فالقربى ليست وشيجة لحم ودم، إنّما هي وشيجة دين وعقيدة، ودعوى القرابة والدم والجنس والقوم إن هي إلاّ دعوى الجاهلية، التي تصطدم اصطداماً أساسياً بالتصوّر الإيماني الصحيح.

﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾البقرة: ١٢٤

والظلم أنواع وألوان: ظلم النفس بالشرك، وظلم الناس بالبغي.. والإمامة ممنوعة على الظالمين، تشمل كل معاني الإمامة: إمامة الرسالة، إمامة الخلافة، إمامة الصلاة، وكل معنى من معاني الإمامة والقيادة.

وأمّا العدل بكل معانيه فهو أساس استحقاق هذه الإمامة في أية صورة من صورها، ومن ظلم فقد جرّد نفسه من حق الإمامة وأسقط حقه فيها بكل معنى من معانيها.

وهكذا الذي قيل لإبراهيم (ع)، وهذا العهد بصيغته التي لا التواء فيها ولا غموض قاطع في تنحية اليهود عن القيادة والإمامة، بما ظلموا، وبما فسقوا، وبما عتوا عن أمر الله وبما انحرفوا عن عقيدة جدّهم إبراهيم.

وهذا الذي قيل لإبراهيم (ع) ، أي العهد بصيغته التي لا التواء فيها ولا غموض قاطع كذلك في تنحية من يسمون أنفسهم المسلمين اليوم، بما ظلموا وبما فسقوا وبما بعدوا عن طريق الله وبما نبذوا في شريعته وراء ظهورهم.. ودعواهم الإسلام، وهم ينحون شريعة الله ومنهجه عن الحياة، دعوى كاذبة لا تقوم على أساس من عهد الله.

ـ السيد فضل اللّه:

﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ ﴾ أي اختبره في حركته في خط المسؤولية الرسالية التي تعمل على تغيير الحياة، من الواقع الكافر الضال إلى الواقع الإيماني المُستقيم في الخط الذي يحقق للإنسان سعادته في الدنيا والآخرة، ليُظهر إخلاصه لله وقدرته على تحمّل المسؤولية، كما يختبر الله رُسله وعباده الصالحين في المواقع الصعبة التي تتحدّى طاقاتهم لتعبّر عن نفسها بقوة وصلابة وإخلاص.

﴿ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ ﴾ممّا أوحى به إليه من آياته في الصحف التي أنزلها عليه، وفي المسؤولية المتنوّعة التي حمّله إياها، ووفاهن حقّهن بالدّعوة تارة وبالانقياد أخرى،

وبالحركة المتحدّية في مواجهة الكُفر والاستكبار ثالثة، فلم ينقضي شيئاً من دعوته، ولم يُهمُل موقفاً من مسؤوليته ولم يبتعد خطوة واحدة عن ساحات التحدّي الكبير، وبذلك استحق درجة القدوة الحسنة الكبيرة التي يراد للناس الأخذ بها وموقع الولاية التي هيّأه لها، لتنفتح النبوّة المُنطلقة في خط التبليغ على الإمامة المُتحرّكة في خط الواقع، ممّا يُوجِد تكاملاً بينهما لا انفصالاً وهناك وجه آخر لتفسير ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ بإرجاع الضمير إلى الله في إتمام كلماته.

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ في تطوّر النبوّة والدعوة إلى الإمامة، وربما كانت المسألة كناية عن الرسالة كلّها في خطها الفكري والعملي بحيث يكون الاختبار الإلهي بالكلمات واستيعاب إبراهيم لهن في موقع التكليف بالرسالة، حركة مترتبة مُتدرجة، إذ لا دليل على أن الجعل كان بعد النبوة، بل كل ما هناك أن الآية توحي بأنّ ثمّة إيحاء من الله بالكلمات الرسالية، وإعلاناً له بأنّها تمثّل خط الإمامة بمعنى الولاية النبوية والقدوة الحركية في حياته. وقد لا نجد في القرآن الكريم أي شاهد على أنّ الإمامة تحمل مفهوماً مقابلاً للنبوة في مفهومها الواقعي العام، لأنّ الوحي الذي يُنزل على النبي أو الرسالة التي يحملها الرسول، ليسا تعبيراً عن حالة ثقافية في وعي النبي ترتبط بذاته أو تنفتح على غيره في عملية سماع مجرّد لآياتها، بل هما معنيان حركيان في عملية الاهتداء والاقتداء والمتابعة، ممّا تختزنه كلمة الإمامة في مضمون الائتمام الذي يعني الاقتداء والمتابعة، وهذا ما نلاحظه في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ الأنبياء: ٧٣ .

فإن الصفات المذكورة للأئمة هي صفات الأنبياء في مهمة نبوّتهم ورسالتهم من الهداية بأمر الله والوحي المنفتح على فعل الخيرات، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة من خلال وعيهم اليقيني لآيات الله، وصبرهم الحركي في مواجهة التحدّيات والعقبات من قبل أعداء الله.

وقد نستوحي من القرآن أنّ إبراهيم (ع) كان عارفاً بطبيعة المُهمّة ومطمئّناً

إليها، فلما أتمّ الكلمات أو أتمّ الله له الكلمات ونجح في الامتحان، لم يفاجأ بالعهد الإلهي في قوله تعالى.

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فلم يصدر عنه أي ردّ فعل في ما واجهه من مسؤولية جديدة في نطاق ذاته، بل كان ردّ فعله منطلقاً من التفكير في مستقبل العهد وامتداده، فهل هو من العهود التي تقتصر عليه من خلال المهمة المحدودة بالزمان والمكان والشخص، أم هو من العهود التي تمتدّ بامتداد الذرية في مدى الزمن. فتسأل: ﴿ومن ذريتي؟﴾ في استفهام متطلع مستشرف يحمل طابع الأمنية التي يحملها الإنسان في فطرته لذريته في كل خير يحصل له، وكان الجواب حاسماً ينطلق في عملية تحديد للقاعدة الرسالية التي تبرّر إعطاء العهد لأي إنسان في كل زمان ومكان.

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ البقرة: ١٢٤

فليست القضية امتيازاً إرثياً أو تكريماً شخصياً يتصل بالذات، كما هو شأن الملوك الذين يعيشون هاجس وراثة الملك عندما يفكرون في الذرية.

بل القضية مسؤولية رسالية تتصل بحياة الناس في ما يفكّرون وفي ما يعيشون، وبخلافة الله في الأرض في ما يريد من تنظيم وتدبير، وبعبادة الله الواحد الأحد في ما تحقّق من وحي وما تُثير من روحانية، فلا بد لمن يحمل من كفاءة روحية وفكرية وعملية في ما تمثّله الكفاءة من معاني الاستقامة والانسجام مع الخط العام للرسالة وللدعوة، فهي عهد لله الذي يجعله للصالحين من عبادة المنسجمين مع خط العدل في أنفسهم من أجل أن يقوم الناس بالقسط، فلا ينال عهده الظالمين الذين يظلمون من فوقهم بالمعصية، ومن دونهم بالغلبة، ويُظاهرون القوم الظلمة، كما جاء في نهج البلاغة عن الإمام علي (ع): «للظالم من الرجال ثلاث علامات: يظلم من فوقه بالمعصية، ومن دونه بالغلبة، ويظاهر القوم الظلمة». ويظلمون أنفسهم في ذلك كلّه، وهكذا كان الجواب دستوراً عملياً لكلّ رسالة رسول.

ـ ففي هذه الآيات لا بد من الوقوف عند تفاصيل تفسيرية وهي:

١ ـ إن الابتلاء في كل ما أمرَ الله به عباده أو نهاهم عنه ومنه ابتلاء الله لإبراهيم بحيث لا يراد منه الاختبار من أجل المعرفة، لأن الله عالم بكل ما سيقع من عباده، فلا يحتاج إلى أية وسيلة للمعرفة بل المراد منه إظهار ذلك ليكون حجّة عليهم في ما لله من حجة، وتكريماً لهم في ما يريد الله لهم من إظهار التكريم.

٢ ـ اختلف المُفسرون، تبعاً لاختلاف الروايات، في معنى الكلمات التي أبقاها القرآن غامضة ويرى صاحب مجمع البيان ما قاله عن الإمام الصادق (ع) «أنه ما ابتلاه الله به في نومه من ذبح ولده إسماعيل (أي العرب) فأتمّها إبراهيم وعزم عليها وسلّم لأمر الله فلما عزم الله ثواباً له لما صدّق وعمل بما أمره ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ثم أنزل عليه الحنيفية وهي الطهارة».

وقد يبعث هذا الحديث على التأمل في تفسير الإمامة بالنبوّة كما يوحي به في هذه الآية وفي ما نرى من حديث، لأن ابتلاء الله لإبراهيم بذبح ولده كان متأخراً عن النبوة، لأن الله رزقه به في آخر أيامه، كما يتحدّث القرآن عن ذلك في بشارة الملائكة له به وبأخيه بعد اليأس.. وقد نلتقي بتفسير آخر عن الإمامة.

أما في معنى الإمامة:

للإمام معنيان:

١ ـ أحدهما: ما يوحي به المعني اللغوي، وهو: «المُقتدي به في أفعاله وأقواله».

٢ ـ الثاني: إنّه الذي يقوم بتدبير الأمة وسياستها والقيام بأمورها، وتأديب حباتها، وتولية ولاتها، وإقامة الحدود على مُستحقيها، ومُحاربة من يكيدها ويُعاديها». وغير ذلك ممّا يُرادف السلطة الكاملة في خطواتها التنفيذية.

ويقول صاحب مجمع البيان: فعلى الوجه الأول، لا يكون نبيّ من الأنبياء إلاّ وهو إمام، وعلى الوجه الثاني، لا يجب في كل نبي أن يكون إماماً، إذ يجوز أن يكون مأموراً بتأديب الجُناة، ومُحاربة العداة والدفاع عن حوزة الدين ومجاهدة الكافرين، فلما ابتلي الله سبحانه وتعالى إبراهيم بالكلمات فأتمهن، جعله إماماً جزاء له على ذلك».

وقد يكون لهذا الحديث صلة بالحديث عن دور النبوة، ولا سيما دور أُولي العزم من الأنبياء فهل هو مجرد التبليغ أم يمتدّ إلى دور التنفيذ؟ ربما من خلال متابعة الآيات القرآنية يتبادر أن الدور النبوي في حياة الناس هو التبليغ والتنفيذ معاً، لأنّ مهمة النبوات هي تغيير العالم والإنسان على الصورة التي يُريدها الله في مسيرته ونظامه، ومن الطبيعي في مثل هذا الاتجاه، أن يكون النبي هو القائد التنفيذي لعملية التغيير بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، لأنه هو الإنسان الوحيد الذي يملك الوعي الكبير المُنفتح على تفاصيل عملية التغيير من خلال وعيه للرسالة التي يحملها ويُبلغها كأساس للتغيير.

خلاصة الفكرة عند السيد فضل الله: أنّ الإمامة تُعتبر الصفة المُحركة للنبي في حياته، فكانت النبوة والرسالة تنطلقان في اتجاه المهمة التي كلّفه الله بها. بينما كانت الإمامة تتحرّك في اتجاه اعتباره قدوة وقاعدة لمن أراد الاقتداء به والانطلاق من القاعدة الإيمانية المتجسدة، وبذلك يظهر كيف تتأخر الإمامة عن النبوة عندما يُعبّر النبي عن طاقاته وملكاته في خطواته العملية في الحياة وفي جهاده من أجل الرسالة، وفي صبره أمام التحديات الداخلية والخارجية.. والله هو العالم بحقائق أحكامه وآياته، وليس لنا إلاّ إثارة الاحتمال من أجل الوصول إلى حقيقة الحال، ولو بعد حين.

ـ الطبري:

﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤ ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ ﴾، وإذا اختبر. يقال منه: «ابتليت فلانا أبتليه ابتلاء»، ومنه قول الله عز وجل:﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ﴾النساء: ٦ ، يعني به: اختبروهم. وكان اختبار الله تعالى ذكره إبراهيم، اختبارا بفرائض فرضها عليه، وأمر أمره به. وذلك هو «الكلمات» التي أوحاهن إليه، وكلفه العمل بهن، امتحاناً منه له واختباراً.

ثم اختلف أهل التأويل في صفة الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم نبيه وخليله (ع). فقال بعضهم: هي شرائع الإسلام، وهي ثلاثون سهماً.

كما حدّثنا محمد بن المثنى قال، حدثنا عبد الأعلى قال، حدثنا داود، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ ﴾ قال، قال ابن عباس: لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه إلاّ إبراهيم، ابتلاه الله بكلمات، فأتمهن. قال: فكتب الله له البراءة فقال: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾النجم: ٣٧ . قال: عشر منها في «الأحزاب»، وعشر منها في «براءة»، وعشر منها في «المؤمنون» و«سأل سائل»، وقال: إن هذا الإسلام ثلاثون سهماً.

وقال آخرون: هي خصال عشر من سنن الإسلام.

كما حدثنا الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال، أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ ﴾ قال، ابتلاه الله بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد. في الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس. وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء.

قال بعضهم: بل الكلمات التي ابتلي بهن عشر خلال بعضهنّ في تطهير الجسد، وبعضهنّ في مناسك الحجّ.

وقال آخرون: بل ذلك: إني جاعلك للناس إماماً في مناسك الحجّ.

وقال آخرون: بل ذلك مناسك الحجّ خاصة.

وقال آخرون: بل ذلك الخلال الستّ: الكوكب، والقمر، والشمس، والنار، والهجرة، والختان، التي ابتلي بهنّ فصير عليهنّ.

والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله عز وجل أخبر عباده أنه اختبر إبراهيم خليله بكلمات أوحاهن إليه، وأمره أن يعمل بهن فأتمهن، كما أخبر الله جل ثناؤه عنه أنه فعل. وجائز أن تكون تلك الكلمات جميع ما ذكره من ذكرنا قوله في تأويل «الكلمات»، وجائز أن تكون بعضه. لأن إبراهيم صلوات الله عليه قد كان

امتحن في ما بلغنا بكل ذلك، فعمل به، وقام فيه بطاعة الله وأمره الواجب عليه فيه. وإذ كان ذلك كذلك، فغير جائز لأحد أن يقول: عنى الله بالكلمات التي ابتلي بهن إبراهيم شيئاً من ذلك بعينه دون شيء، ولا عنى به كل ذلك، إلا بحجة يجب التسليم لها: من خبر عن الرسول (ص)، أو إجماع من الحجّة. ولم يصح في شيء من ذلك خبر عن الرسول بنقل الواحد، ولا بنقل الجماعة التي يجب التسليم لما نقلته. غير أنه روي عن النبي (ص) في نظير معنى ذلك خبران، لو ثبتا، أو أحدهما، كان القول به في تأويل ذلك هو الصواب. أحدهما، ما:

حدّثنا به أبو كريب قال، حدثنا رشدين بن سعد قال، حدثني زبّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه، قال: كان النبي (ص) يقول: ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله: الَّذي وَفَّى؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى: فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ حتى يختم الآية.

والآخر منهما ما: حدثنا به أبو كريب قال، حدثنا الحسن بن عطية قال، حدثنا إسرائيل، عن جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله (ص): ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾النجم: ٣٧ قال، أتدرون ما «وفى»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: وفي عمل يومه، أربع ركعات في النهار. فلو كان خبر سهل بن معاذ عن أبيه صحيحاً سنده، كان بينا أن الكلمات التي ابتلي بهن إبراهيم فقام بهن، هو قوله كلما أصبح وأمسى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾الروم: ١٧ - ١٨ أو كان خبر أبي أمامة عدولا نقلته، كان معلوما أن الكلمات التي أوحين إلى إبراهيم فابتلي بالعمل بهن: أن يصلي كل يوم أربع ركعات. غير أنهما خبران في أسانيدهما نظر.

والصواب من القول في معنى الكلمات التي أخبر الله أنه ابتلي بهن إبراهيم، ما بينا آنفا.

﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾، فأتم إبراهيم الكلمات، و«إتمامه إياهن»،

إكماله إياهن، بالقيام لله بما أوجب عليه فيهن، وهو الوفاء الذي قال الله جل ثناؤه: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾النجم: ٣٧ ، يعني وفى بما عهد إليه، بالكلمات، بما أمره به من فرائضه ومحنته فيها.

﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾.

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ فقال الله: يا إبراهيم إني مُصَيّرك للناس إماماً يؤتمّ به ويقتدى به. كما:

حدثت عن عمار قال، حدثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع: ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ ليؤتم به ويقتدى به. يقال منه: «أممت القوم فأنا أؤمهم أما وإمامة إذا كنت إمامهم».

وإنما أراد جل ثناؤه بقوله لإبراهيم (ع): ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾، إني مصيرك تؤم من بعدك من أهل الإيمان بي وبرسُلي، تتقدّمهم أنت، ويتبعون هديك، ويستنّون بسنّتك التي تعمل بها، بأمري إياك ووحيي إليك.

﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾

يعني جل ثناؤه بذلك: قال إبراهيم لمّا رفع الله منزلته وكرمه، فأعلمه ما هو صانع به، من تصييره إماماً في الخيرات لمن في عصره، ولمن جاء بعده من ذريته وسائر الناس غيرهم، يهتدى بهديه ويقتدى بأفعاله وأخلاقه: يا رب، ومن ذريتي فاجعل أئمة يقتدي بهم، كالذي جعلتني إماماً يؤتم بي ويقتدى بي. مسألة من إبراهيم ربه سأله إياها.

وقد زعم بعض الناس أن قول إبراهيم: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾، مسألة منه ربه لعقبه أن يكونوا على عهده ودينه، كما قال:﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾إبراهيم: ٣٥ ، فأخبر الله جل ثناؤه أن في عقبه الظالم المخالف له في دينه، بقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾البقرة: ١٢٤ .

والظاهر من التنزيل يدل على غير الذي قاله صاحب هذه المقالة. لأن قول إبراهيم صلوات الله عليه: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾، في إثر قول الله جل ثناؤه:﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ

﴿لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾. فمعلوم أن الذي سأله إبراهيم لذريته، لو كان غير الذي أخبر ربه أنه أعطاه إياه، لكان مبيناً. ولكن المسألة لما كانت مما جرى ذكره، اكتفى بالذكر الذي قد مضى، من تكريره وإعادته، فقال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، بمعنى: ومن ذريتي فاجعل مثل الذي جعلتني به، من الإمامة للناس.

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ البقرة: ١٢٤ .

قال أبو جعفر: هذا خبر من الله جل ثناؤه عن أن الظالم لا يكون إماماً يقتدي به أهل الخير. وهو من الله جل ثناؤه جواب لما يتوهّم في مسألته إياه أن يجعل من ذريته أئمة مثله. فأخبر أنه فاعل ذلك، إلاّ بمن كان من أهل الظلم منهم، فإنه غير مُصَيِّره كذلك، ولا جاعله في محل أوليائه عنده، بالتكرمة بالإمامة. لأن الإمامة إنما هي لأوليائه وأهل طاعته، دون أعدائه والكافرين به.

واختلف أهل التأويل في العهد الذي حرّم الله جل ثناؤه الظالمين أن ينالوه. فقال بعضهم: ذلك «العهد»، هو النبوة.

وقال آخرون: معنى»العهد»: عهد الإمامة. فتأويل الآية على قولهم: لا أجعل من كان من ذريتك بأسرهم ظالما، إماما لعبادي يقتدى به.

وقال آخرون: معنى ذلك: أنه لا عهد عليك لظالم أن تطيعه في ظلمه.

وقال آخرون: معنى العهد في هذا الموضع: الأمان.

فتأويل الكلام على معنى قولهم، قال الله: لا ينال أماني أعدائي، وأهل الظلم لعبادي أي لا أؤمنهم من عذابي في الآخرة.

وقال آخرون: بل العهد الذي ذكره الله في هذا الموضع: دينُ الله.

كما حدثني يحيى بن جعفر قال، أخبرنا يزيد قال، أخبرنا جويبر، عن الضحاك في قوله:﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ البقرة: ١٢٤ قال، لا ينال عهدي عدو لي يعصيني، ولا أنحلّها إلا ولياً لي يطيعني.

هذا الكلام، وإن كان ظاهره ظاهر خبر عن أنه لا ينال من ولد إبراهيم (ع) عهد الله الذي هو النبوّة والإمامة لأهل الخير، بمعنى الاقتداء به في الدنيا، والعهد الذي

بالوفاء به ينجو في الآخرة، من وفى لله به في الدنيا من كان منهم ظالماً متعدّياً جائراً عن قصد سبيل الحق. فهو إعلام من الله تعالى ذكره لإبراهيم: أن من ولده من يشرك به، ويجور عن قصد السبيل، ويظلم نفسه وعباده.

ـ الطبرسي:

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

المعنى : واذكروا ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ ﴾ أي: اختبر وهو مجاز وحقيقته أنه أمر إبراهيم ربه وكلفه وسمي ذلك اختبار لأن ما يستعمل الأمر منا في مثل ذلك يجري على جهة الاختبار والامتحان فأجرى على أمره اسم أمور العباد على طريق الاتساع، وأيضاً فإن الله تعالى لما عامل عباده معاملة المبتلي المختبر إذ لا يجازيهم على ما يعلمه منهم أنهم سيفعلونه قبل أن يقع ذلك الفعل منهم، كما لا يجازى المختبر للغير ما لم يقع الفعل منه سمي أمره ابتلاء وحقيقة الإبتلاء تشديد التكليف، وقوله: ﴿ بِكَلِمَٰتٍ ﴾ فيه خلاف فروي عن الصادق (ع) أنه ما ابتلاه الله به في نومه من ذبح ولده إسماعيل أبي العرب فأتمها إبراهيم وعزم عليها وسلم لأمر الله فلما عزم الله ثواباً له لما صدق وعمل بما أمره الله﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾البقرة: ١٢٤ ثم أنزل عليه الحنيفية وهي الطهارة وهي عشرة أشياء خمسة منها في الرأس وخمسة منها في البدن فأما التي في الرأس فأخذ الشارب، وإعفاء اللحى، وطم الشعر، والسواك، والخلال، وأما التي في البدن ، فحلق الشعر من البدن، والختان، وتقليم الأظفار، والغسل من الجنابة، والطهور بالماء فهذه الحنيفية الظاهرة التي جاء بها إبراهيم فلم تنسخ ولا تنسخ إلى يوم القيامة وهو قوله: ﴿ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾النساء: ١٢٥ ذكره علي بن إبراهيم بن هاشم في تفسيره، وقال قتادة: وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس أنها عشر خصال كانت فرضاً في شرعه سنة في شريعتنا المضمضة والاستنشاق وفرق الرأس، وقص الشارب، والسواك في الرأس، والختان، وحلق العانة،

ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، والاستنجاء بالماء في البدن، وفي الرواية الأخرى عن ابن عباس أنه ابتلاه بثلاثين خصلة من شرائع الإسلام لم يبتل أحداً بها فأقامها كلها إبراهيم فأتمهن فكتب له البراءة فقال: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾النجم: ٣٧ وهي عشر في سورة براءة ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ﴾التوبة: ١١٢ إلى آخرها وعشر في الأحزاب ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴾الأحزاب: ٣٥ إلى آخرها، وعشر في سورة المؤمنين ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾المؤمنون: ١ إلى قوله:﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾المؤمنون: ١٠، وروي وعشر في سورة ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ ﴾المعارج: ١ إلى قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾المؤمنون: ٩ فجعلها أربعين، وفي رواية ثالثة عن ابن عباس أنه أمره بمناسك الحج: وقال الحسن: ابتلاه الله بالكوكب، والقمر، والشمس، والختان، وبذبح ابنه، وبالنار، وبالهجرة، فكلهن وفى الله فيهن، وقال مجاهد: ابتلاه الله بالآيات التي بعدها، وهي قوله ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾البقرة: ١٢٤إلى آخر القصة، وقال أبو علي الجبائي: أراد بذلك كلما كلفه من الطاعات العقلية والشرعية، والآية محتملة لجميع هذه الأقاويل التي ذكرناها، وكان سعيد بن المسيب يقول: كان إبراهيم أول الناس أضاف الضيف، وأول الناس اختتن، وأول الناس قص شاربه واستحد، وأول الناس رأى الشيب فلما رآه قال:

يا رب ما هذا؟ قال: هذا الوقار. قال: يا رب فزدني وقاراً، وهذا أيضاً قد رواه السكوني، عن أبي عبد الله (ع)، ولم يذكر أول من قص شاربه واستحد وزاد فيه، وأول من قاتل في سبيل الله إبراهيم، وأول من أخرج الخمس إبراهيم، وأول من اتخذ النعلين إبراهيم، وأول من اتخذ الروايات إبراهيم. وروى الشيخ أبو جعفر بن بابويه في كتاب النبوة بإسناده مرفوعاً إلى المفضل بن عمر عن الصادق (ع) قال سألته عن قول الله عزَّ وجلَّ ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ ﴾ما هذه الكلمات قال: هي الكلمات التي تلقاها آدم (ع) من ربه فتاب عليه وهو أنه قال: يا رب أسألك بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلاَّ تبت علي، فتاب الله عليه إنه هو التواب الرَّحيم، فقلت له: يا ابن رسول الله فما يعني بقوله: ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ قال: أتمهن إلى القائم اثني عشر إماماً تسعة من ولد الحسين (ع) قال المفضل فقلت له:

يا ابن رسول الله فأخبرني عن كلمة الله عزَّ وجلَّ ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ الزخرف: ٢٨ قال يعني بذلك الإمامة جعلها الله في عقب الحسين إلى يوم القيامة فقلت له: يا ابن رسول الله فكيف صارت الإمامة في ولد الحسين دون ولد الحسن (ع) وهما جميعاً ولدا رسول الله (ص)، وسبطاه وسيدا شباب أهل الجنة فقال: إنْ موسى وهارون نبيان مرسلان أخوان فجعل الله النبوة في صلب هارون دون صلب موسى، ولم يكن لأحد أن يقول لم فعل الله ذلك، وأن الإمامة خلافة الله عزَّ وجلَّ ليس لأحد أن يقول لِمَ جعلها الله في صلب الحسين دون صلب الحسن لأن الله عزَّ وجلَّ هو الحكيم في أفعاله لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وقال الشيخ أبو جعفر بن بابويه، ولقوله تعالى﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ ﴾ وجه آخر فإن الابتلاء على ضربين أحدهما: مستحيل على الله تعالى والآخر جائز. فالمستحيل هو أن يختبره ليعلم ما تكشف الأيام عنه وهذا ما لا يصح لأنه سبحانه علام الغيوب والآخر: أن يبتليه حتى يصبر فيما يبتليه به فيكون ما يعطيه من العطاء على سبيل الاستحقاق ولينظر إليه الناظر فيقتدي به فيعلم من حكمة الله عزَّ وجلَّ أنه لم تكن أسباب الإمامة إلاَّ إلى الكافي المستقل بها الذي كشفت الأيام عنه فأما الكلمات سوى ما ذكرناه فمنها اليقين، وذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾الأنعام: ٧٥، ومنها المعرفة بالتوحيد والتنزيه عن التشبيه حين نظر إلى الكوكب والقمر والشمس ومنها الشجاعة بدلالة قوله فجعلهم جذاذا إلاَّ كبيراً لهم ومقاومته، وهو واحد ألوفا من أعداء الله تعالى، ومنها الحلم، وقد تضمنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ هود: ٧٥، ومنها السخاء، ويدل عليه قوله: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾الذاريات: ٢٤ ثم العزلة عن العشيرة وقد تضمنه قوله: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾مريم: ٤٨ ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبيان ذلك في قوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ﴾مريم: ٤٢ الآيات. ثم دفع السيئة بالحسنة في جواب قول أبيه: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾مريم: ٤٦ - ٤٧ ثم التوكل

وبيان ذلك في قوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴾الشعراء: ٧٨ الآيات. ثم المحنة في النفس حين جعل في المنجنيق وقذف به في النار، ثم المحنة في الولد حين أمر بذبح ابنه إسماعيل، ثم المحنة في الأهل حين خلص الله حرمته من عبادة القبطي في الخبر المشهور، ثم الصبر على سوء خلق سارة، ثم استقصاره النفس في الطاعة. بقوله : ﴿ وَلَا تُخۡزِنِى يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴾الشعراء: ٨٧ ثم الزلفة في قوله: ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا ﴾آل عمران: ٦٧ الآية. ثم الجمع لشروط الطاعات في قوله: ﴿ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحۡيَاىَ وَمَمَاتِى ﴾الأنعام: ١٦٢ إلى قوله: ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾الأنعام: ١٦٣ ثم استجابه الله دعوته حين قال: ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيۡفَ تُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾البقرة: ٢٦٠ الآية. ثم اصطفاه الله سبحانه إياه في الدنيا، ثم شهادته له في العاقبة أنه من الصالحين في قوله: ﴿ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِى ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾البقرة: ١٣٠ ثم اقتداء من بعده من الأنبياء به في قوله: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾البقرة: ١٣٢ الآية . وفي قوله: ﴿ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ ﴾النحل: ١٢٣ انتهى كلام الشيخ أبي جعفر، وقوله: ﴿ فَأَتَمَّهُنَّۖ ﴾ معناه: وفى بهن في قول الحسن وعمل بهن على التمام في قول قتادة، والضمير في أتمهن عائد إلى الله تعالى في قول أبي القاسم البلخي، وهو اختيار الحسين بن علي المغربي قال البلخي: والكلمات هي الإمامة على ما قاله مجاهد قال: لأن الكلام متصل، ولم يفصل بين قوله : ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗا ﴾ وبين ما تقدمه بواو العطف وأتمهن الله بأن أوجب بها الإمامة بطاعته واضطلاعه بما ابتلاه وقوله: ﴿قَالَ ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗا ﴾ معناه: قال الله تعالى: (إني جاعلك إماماً يقتدى بك في أفعالك وأقوالك)، لأن المستفاد من لفظ الإمام أمران أحدهما: أنه المقتدى به في أفعاله وأقواله .والثاني: أنه الذي يقوم بتدبير الأمة وسياستها والقيام بأمورها وتأديب جناتها وتولية ولاتها وإقامة الحدود على مستحقيها ومحاربة من يكيدها ويعاديها فعلى الوجه الأول لا يكون نبي من الأنبياء إلاَّ وهو إمام وعلى الوجه الثاني لا يجب في كل نبي أن يكون إماماً إذ يجوز أن لا يكون مأموراً بتأديب الجناة ومحاربة العداة، والدفاع عن حوزة الدين، ومجاهدة

الكافرين، فلما ابتلى الله سبحانه إبراهيم بالكلمات فأتمهن جعله إماماً للأنام جزاء له على ذلك، والدليل عليه أن قوله: ﴿ جَاعِلُكَ ﴾ عمل في قوله: ﴿ إِمَامًا ﴾ واسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضي لا يعمل عمل الفعل، ولو قلت أنا ضارب زيداً أمس لم يجز فوجب أن يكون المراد أنه جعله إماماً إما في الحال أو في الاستقبال، والنبوة كانت حاصلة له قبل ذلك، وقوله: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ أي: واجعل من ذريتي من يوشح بالإمامة، ويوشح بهذه الكرامة، وقيل: إنما قال ذلك على جهة التعرف ليعلم هل يكون في عقبه أئمة يقتدى بهم والأولى أن يكون ذلك على وجه السؤال من الله تعالى أن يجعلهم كذلك، وقوله ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ قال مجاهد: العهد الإمامة وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (ع) أي: لا يكون الظالم إماماً للناس فهذا يدل على أنه يجوز أن يعطي ذلك بعض ولده إذا لم يكن ظالماً، لأنه لو لم يرد أن يجعل أحداً منهم إماماً للناس لوجب أن يقول في الجواب لا أو لا ينال عهدي ذريتك، وقال الحسن معناه: أن الظالمين ليس لهم عند الله عهد يعطيهم به خيراً وإنْ كانوا قد يعاهدون في الدنيا فيوفى لهم، وقد كان يجوز في العربية أن يقال لا ينال عهدي الظالمون؛ لأن ما نالك فقد نلته، وقد روي ذلك في قراءة ابن مسعود واستدل أصحابنا بهذه الآية على أن الإمام لا يكون إلاَّ معصوماً عن القبائح، لأن الله سبحانه نفي أن ينال عهده الذي هو الإمامة ظالم، ومن ليس بمعصوم فقد يكون ظالماً إما لنفسه، وإما لغيره، فإن قيل إنما نفى أن يناله ظالم في حال ظلمه فإذا تاب لا يسمى ظالماً فيصح أن يناله. فالجواب أن الظالم وإنْ تاب فلا يخرج من أن تكون الآية قد تناولته في حال كونه ظالماً، فإذا نفي أن يناله فقد حكم عليه بأنه لا ينالها، والآية مطلقة غير مقيدة بوقت دون وقت، فيجب أن تكون محمولة على الأوقات كلها فلا ينالها الظالم وإنَّ تاب فيما بعد.

ـ القرطبي:

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ

﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾

لما جرى ذكر الكعبة والقبلة اتصل ذلك بذكر إبراهيم عليه السلام، وأنه الذي بنى البيت؛ فكان من حق اليهود ـ وهم من نسل إبراهيم ـ ألا يرغبوا عن دينه. والابتلاء: الامتحان والاختبار؛ ومعناه امرٌ وتعبد. وإبراهيم تفسيره بالسريانية فيما ذكر الماوردي وبالعربية فيما ذكر ابن عطية: أب رحيم. قال السهيلي: وكثيراً ما يقع الاتفاق بين السرياني والعربي أو يقاربه في اللفظ: ألا ترى أن إبراهيم تفسيره أب راحم، لرحمته بالأطفال؛ ولذلك جعل هو وسارة زوجته كافلين لأطفال المؤمنين الذين يموتون صغاراً إلى يوم القيامة.

قلت: ومما يدل على هذا ما خرّجه البخاري من حديث الرؤيا الطويل عن سُمرة، وفيه: أن النبي (ص) رأى في الروضة إبراهيم عليه السلام وحوله أولاد الناس. وقد أتينا عليه في كتاب التذكرة، والحمد لله. وإبراهيم هذا هو ابن تارخ بن ناخور في قول بعض المؤرخين.

وفي التنزيل: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾الأنعام: ٧٤وكذلك في صحيح البخاري، ولا تناقض في ذلك، على ما يأتي في (الأنعام) بيانه إن شاء الله تعالى. وكان له أربع بنين: إسماعيل وإسحاق ومدين ومدائن؛ على ما ذكره السهيلي. وقدم على الفاعل للاهتمام؛ إذ كون الرب تبارك وتعالى مبتلياً معلوم، وكون الضمير المفعول في العربية، متصلاً بالفاعل موجب تقديم المفعول؛ فإنما بني الكلام على هذا الاهتمام، فاعلمه. وقراءة العامة (إبراهيم) بالنصب، (ربه) بالرفع على ما ذكرنا. وروي عن جابر بن زيد أنه قرأ على العكس، وزعم أن ابن عباس أقرأه كذلك. والمعنى دعا إبراهيم ربه وسأل، وفيه بعد، لأجل الباء في قوله: ﴿بِكَلِمَٰتٖ﴾ قوله تعالى: ﴿بِكَلِمَٰتٖ﴾ الكلمات جمع كلمة، ويرجع تحقيقها إلى كلام الباري تعالى، لكنه عبّر عنها عن الوظائف التي كلفها إبراهيم عليه السلام، ولما كان تكليفها بالكلام سميت به، كما سمي عيسى كلمة، لأنه صدر عن كلمة وهي ﴿كن﴾ وتسمية الشيء بمقدمته أحد قسمي المجاز.

واختلف العلماء في المراد بالكلمات على أقوال: أحدها: شرائع الإسلام، وهي

ثلاثون سهماً، عشرة منها في سورة براءة: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾التوبة: ١١٢ إلى آخرها، وعشرة في الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ﴾الأحزاب: ٣٥ إلى آخرها، وعشرة في المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾المؤمنون: ١ إلى قوله: ﴿عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾المؤمنون: ٩ وقوله في ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾المعارج: ١، ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾المعارج: ٢٢ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾المعارج: ٣٤ . قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما ابتلى الله أحداً بهنّ فقام بها كلها إلا إبراهيم عليه السلام، ابتلي بالإسلام فأتمه فكتب الله له البراءة فقال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾النجم: ٣٧ . وقال بعضهم، بالأمر والنهي، وقال بعضهم: بذبح ابنه، وقال بعضهم: بأداء الرسالة، والمعنى متقارب.

وأصح من هذا ما ذكر عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قال: ابتلاه الله بالطهارة، خمس ففي الرأس وخمس في الجسد: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسّواك، وفرق الشعر. وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والاختتان، ونتف الإبط، وغسل مكان الغائط، والبول بالماء، وعلى هذا القول فالذي أتمّ هو إبراهيم، هو ظاهر القرآن.

قوله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ الإمام: القدوة؛ ومنه قيل لخيط البناء: إمام، وللطريق: إمام؛ لأنه يؤم فيه للمسالك، أي يقصد. فالمعنى: جعلناك للناس إماماً يأتمون بك في هذه الخصال، ويقتدى بك الصالحون. فجعله الله تعالى إماماً لأهل طاعته؛ فلذلك اجتمعت الأمم على الدعوى فيه ـ والله أعلم ـ أنه كان حنيفاً.

قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ دعاء على جهة الرّغباء إلى الله تعالى؛ أي من ذريتي يا رب فاجعل، وقيل: هذا منه على جهة الاستفهام عنهم؛ أي ومن ذريتي يا رب ماذا يكون؟ فأخبره الله تعالى أنَّ فيهم عاصياً وظالماً لا يستحق الإمامة. قال ابن عباس: سأل إبراهيم عليه السلام أن يجعل من ذريته إمام، فأعلمه الله أن في ذريته من يعصي فقال:﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ أصل ذرية، فعلية من الذر؛ لأن الله تعالى أخرج الخلق من صلب آدم عليه السلام كالذرّ حين أشهدهم على أنفسهم. وقيل: هو مأخوذ من ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءاً خلقهم، ومنه الذرية وهي نسل الثقلين؛ إلا أن العرب تركت همزها، والجمع الذراري. وقرأ زيد بن ثابت (ذرية) بكسر الذال و(ذرية) بفتحها. قال ابن جنّي أبو الفتح عثمان: يحتمل أصل هذا الحرف أربعة ألفاظ: أحدها ـ ذرأ، والثاني ـ ذرر والثالث ذرو، والرابع ذرى، فأما الهمزة فمن ذرأ الله الخلق، وأما ذرر فمن لفظ الذر ومعناه، وذلك لما ورد في الخبر «أن الخلق كان كالذر» وأما الواو والياء، فمن ذروة الحب وذريته يقالان جميعاً، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾الكهف: ٤٥ وهذا للطفه وخفته، وتلك حال الذرّ أيضاً.

قوله تعالى:﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾البقرة: ١٢٤ اختلف في المراد بالعهد، فروى أبو صالح عن ابن عباس أنه النبوة، وقال السّدي: مجاهد: الإمامة. قتادة: الإيمان. عطاء: الرحمة. الضحاك: دين الله تعالى. وقيل: عهده أمره. ويطلق العهد على الأمر، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ ﴾آل عمران: ١٨٣ أي أمرنا. وقال: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ ﴾يس: ٦٠

يعني ألم أقدم إليكم الأمر به؛ وإذا كان عهد الله هو أوامره فقوله: ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي لا يجوز أن يكونوا بمحل من يقبل منهم أوامر الله ولا يقيمون عليها؛ على ما يأتي بيانه بعد هذا آنفاً إن شاء الله تعالى. وروى معمر عن قتادة في قوله تعالى:﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ قال: لا ينال عهد الله في الآخرة الظالمين؛ فأما في الدنيا فقد ناله الظالم فآمن به، وأكل وعاش وأبصر. قال الزجاج: وهذا قول حسن، أي لا ينال أماني الظالمين، أي لا أؤمنهم من عذابي. وقال سعيد بن جبير: الظالم هنا المشرك. وقرأ ابن مسعود وطلحة بن مصرّف ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾البقرة: ١٢٤ برفع الظالمون. الباقون بالنصب. وأسكن حمزة وحفص وابن مَحيص الياء في ﴿ عَهْدِى ﴾ وفتحها الباقون.

ـ الشيرازي:

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

هذه الآية وما بعدها تتحدث عن بطل التوحيد نبي الله الكبير إبراهيم على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام، وعن بناء الكعبة وأهمية هذه القاعدة التوحيدية العبادية.

والهدف من هذه الآيات ــ وعددها ثماني عشرة آية ــ ثلاثة أُمور:

أوّلاً: أن تكون مقدمة لمسألة تغيير القبلة التي ستطرح بعد ذلك، كي يعلم المسلمون أن هذه الكعبة من ذكريات إبراهيم محطم الأصنام، ولكي يفهموا أن التلويث الذي طرأ على الكعبة إذ حولها المشركون إلى بيت للأصنام، إنما هو تلويث سطحي لا يحط من قيمة الكعبة ومكانتها.

ثانياً: لفضح ادعاءات اليهود والنصارى بشأن انتسابهم لإبراهيم، وأنهم ورثة دينه وطريقته، ولتوضيح مدى ابتعاد هؤلاء عن ملة إبراهيم.

ثالثاً: لتفهيم مشركي العرب أيضاً ببعدهم عن منهج النّبي الكبير محطم الأصنام، والرّد على ما كانوا يتصورونه من ارتباط بينهم وبين إبراهيم.

الآية الكريمة تقول أوّلاً: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾.

هذه الفقرة من الآية تشير إلى الإختبارات المتتالية التي اجتازها إبراهيم (ع) بنجاح، وتبين من خلالها مكانة إبراهيم وعظمته وشخصيته.

وبعد أنّ اجتاز هذه الإختبارات بنجاح استحق أن يمنحه الله الوسام الكبير ﴿قَالَ ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾﴾.

وهنا تمنّى إبراهيم (ع) أن يستمر خط الإمامة من بعده، وأنّ لا يبقى محصوراً بشخصه ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾.

لكن الله أجابه:﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾البقرة: ١٢٤ .

وقد استجيب طلب إبراهيم (ع) في استمرار خط الإمامة في ذريّته، لكن هذا المقام لا يناله إلاَّ الطاهرون المعصومون من ذريّته لا غيرهم.

من خلال دراسة آيات القرآن الكريم بشأن إبراهيم(ع)، وما أدّاه هذا النّبي العظيم من أعمال جسيمة استحق ثناء الله، نفهم أن المقصود من الكلمات هو مجموعة المسؤوليات والمهام الثقيلة الصعبة التي وضعها الله على عاتق إبراهيم(ع)، فحملها وأحسن حملها، وأدّى ما عليه خير أداء، وهي عبارة عن:

أخذ ولده إلى المذبح والإستعداد التام لذبحه، إطاعة لأمر الله سبحانه.

إسكان الزوج والولد في واد غير ذي زرع بمكة، حيث لم يسكن فيه إنسان.

النهوض بوجه عَبَدة الأصنام وتحطيم الأصنام، والوقوف ببطولة في تلك المحاكمة التاريخية، ثم إلقاؤه في وسط النيران. وثباته ورباطة جأشه في كل هذه المراحل.

الهجرة من أرض عبدة الأصنام والإبتعاد عن الوطن، والإتجاه نحو أصقاع نائية لأداء رسالته ... وأمثالها.

كان كل واحد من هذه الإختبارات ثقيلاً وصعباً حقّاً، لكنه بقوة إيمانه نجح فيها جميعاً، وأثبت لياقته لمقام ((الإمامة)).

يتبين من الآية الكريمة التي نحن بصددها، أن منزلة الإمامة الممنوحة لإبراهيم(ع) بعد كل هذه الإختبارات، تفوق منزلة النّبوة والرسالة.

ولتوضيح ذلك نقول: إنَّ للإمامة معاني مختلفة:

١ ـ الإمامة بمعنى الرئاسة والزعامة في أُمور الدنيا، (قال بذلك فريق من علماء أهل السنة).

٢ ـ الإمامة بمعنى الرئاسة في أُمور الدين و الدنيا، (قال بذلك فريق آخر من علماء أهل السنة).

٣ ـ الإمامة بمعنى تحقيق المناهج الدينية بما في ذلك منهج الحكم بالمعنى الواسع للحكومة، وإجراء الحدود وأحكام الله، وتطبيق العدالة الإجتماعية، وتربية الأفراد في محتواهم الداخلي وفي سلوكهم الخارجي. وهذه المنزلة أسمى من منزلة النّبوة والرسالة؛ لأن منزلة النّبوة والرسالة تقتصر على إبلاغ أوامر الله، والبشارة والإنذار، أمّا الإمامة فتشمل مسؤوليات النّبوة والرسالة إضافة إلى ((إجراء الأحكام)) و((

تربية النفوس ظاهرياً وباطنياً)) (من الواضح أن كثيراً من الأنبياء كانوا يتمتعون بمنزلة الإمامة).

منزلة الإمامة هي في الحقيقة منزلة تحقيق أهداف الدين والهداية، أي: ((الإيصال إلى المطلوب)) ، وليست هي ((إراءة الطريق)) فحسب.

لا شك أن المراد من الإمامة في الآية التي نحن بصدد تفسيرها هو المعنى الثالث للإمامة، لأنّه يستفاد من آيات متعددة أنّ مفهوم ((الإمامة)) ينطوي على مفهوم ((الهداية))، كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾السجدة: ٢٤ .

هذه الهداية لا تعني إراءة الطريق، لأن إبراهيم(ع) كانت له قبل ذلك مكانة النّبوة والرسالة، أي مكانة إراءة الطريق.

القرائن الواضحة تشير إلى أن منزلة الإمامة الممنوحة لإبراهيم(ع) بعد الإمتحانات العسيرة، واجتياز مراحل اليقين والشجاعة والإستقامة، هي غير منزلة البشارة والإبلاغ والإنذار.

إذن، الهداية التي يتضمنها مفهوم الإمامة ما هي إلاَّ ((الإيصال إلى المطلوب)) و((تحقيق روح الدين))، وتطبيق المناهج التربوية في النفوس المستعدة.

هذا الحقيقة يوضحها بإجمال حديث عميق المعنى روي عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق (ع) يقول: ((إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالى اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ عَبْداً قَبْلَ أَنْ يَتَخِذَهُ نَبيّاً، وإِنَّ اللهَ اتَّخَذَهُ نَبيّاً قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ رَسُولاً، وَإِنَّ اللهَ اتَّخَذَهُ رَسُولاً قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ خَلِيلاً، وَإِنَّ اللهَ اتَّخَذَهُ خَلِيلاً قَبْلَ أَنْ يَجْعَلَهُ إِمَاماً، فَلَمَّا جَمَعَ لَهُ الأَشْيَاءَ، قَالَ: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ قَالَ: فَمِنْ عِظَمِهَا فِي عَيْنِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾البقرة: ١٢٤ قَالَ: لاَ يَكُونُ السَّفِيهُ إِمامَ التَّقِيِّ)).

الفرق بين النّبوة والإمامة والرسالة:

يفهم من الآيات الكريمة والمأثور عن المعصومين، أَنْ حَمَلة المهمات من قبل الله تعالى لهم منازل مختلفة:

١ ـ منزلة النّبوة: أي إستلام الوحي من الله، فالنبي هو الذي ينزل عليه الوحي، ومايستلمه من الوحي يعطيه للنّاس إن طلبوا منه ذلك.

٢ ـ منزلة الرسالة: وهي منزلة إبلاغ الوحي، ونشر أحكام الله، وتربية الأفراد عن طريق التعليم والتوعية. فالرّسول إذن هو المكلف بالسعي في دائرة مهمته لدعوة النّاس إلى الله وتبليغ رسالته، وبذل الجهد لتغيير فكري عقائدي في مجتمعه.

٣ ـ منزلة الإمامة: وهي منزلة قيادة البشرية، فالإمام يسعى إلى تطبيق أحكام الله عملياً عن طريق إقامة حكومة إلهّية وإستلام مقاليد الأمور اللازمة. وإن لم يستطع إقامة الدولة يسعى قدر طاقته في تنفيذ الأحكام.

بعبارة أُخرى، مهمة الإمام تنفيذ الأوامر الإلهية، بينما تقتصر مهمة الرّسول على تبليغ هذه الأوامر.

من نافلة القول أن كثيراً من الأنبياء كنبيّ الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام حازوا على المنازل الثلاث، كانوا يستلمون الوحي، ويبلغون أوامر الله، ويسعون إلى أقامة الحكومة وتنفيذ الأحكام، وينهضون ــ بما لهم من تأثير روحي ــ بمهمة تربية النفوس.

الإمامة ــ بعبارة موجزة ــ هي منزلة القيادة الشاملة لجميع المجالات المادية والمعنوية والجسمية والروحية والظاهرية والباطنية. الإمام رئيس الدولة وزعيم المجتمع ومعلم الأخلاق وقائد المحتوى الداخلي للأفراد المؤهلين.

فهو بقوّته المعنوية يقود النفوس المؤهلة على طريق التكامل.

وبقدرته العلمية يعلم الجهلة.

وبقوّة حكومته أو أية قوّة تنفيذية أُخرى يطبق مبادي العدالة.

بما تقدم في بيان حقيقة الإمامة يتضح أنه من الممكن أن تكون لشخص منزلة

النّبوة وتبليغ الرسالة، بينما لا تكون له منزلة الإمامة. وهذه المنزلة تحتاج إلى مؤهلات كثيرة في جميع المجالات. وهي المنزلة التي نالها إبراهيم(ع) بعد كل هذه الإمتحانات والمواقف العظيمة، وكانت آخر مرحلة من مراحل مسيرته التكاملية.

من ذهب إلى أنْ الإمامة هي ((أن يكون الفرد لائقاً ونموذجياً)) فقط، ما فهم أن هذه الصفة كانت موجودة في إبراهيم(ع) منذ بداية النّبوة.

ومن قال إنّ المقصود من الإمامة ((أن يكون الفرد قدوة))، فاته أن هذه صفة جميع الأنبياء منذ ابتدائهم بدعوة النّبوة، ولذلك وجب أن يكون النّبي معصوماً لأن أعماله قدوة للآخرين.

من هنا، فمنزلة الإمامة أسمى ممّا ذكر، بل أسمى من النّبوة والرسالة، وهي المنزلة التي نالها إبراهيم من قبل الله بعد أن اجتاز الإمتحان تلو الإمتحان.

والمقصود من ((الظلم)) في التعبير القرآني: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لا يقتصر على ظلم الآخرين، بل الظلم (مقابل العدل)، وقد استعمل هنا بالمعنى الواسع للكلمة، ويقع في النقطة المقابلة للعدل: وهو وضع الشيء في محله.

فالظلم إذن وضع الشخص أو العمل أو الشيء في غير مكانه المناسب.

ولما كانت منزلة الإمامة والقيادة الظاهرية والباطنية للبشرية منزلة ذات مسؤوليات جسيمة هائلة عظيمة، فإن لحظة من الذنب والمعصية خلال العمر تسبب سلب لياقة هذه المنزلة عن الشخص.

لذلك نرى أئمة آل البيت(ع) يثبتون بهذه الآية تعيّن الخلافة بعد النّبي مباشرة لعلي(ع) وإنحصارها به، مشيرين إلى أنْ الآخرين عبدوا الأصنام في الجاهلية، وعليّ(ع) وحده لم يسجد لصنم. وأيّ ظلم أكبر من عبادة الأصنام؟! ألم يقل لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان: ١٣ ؟!

من هذه الإستدلالات ما رواه هشام بن سالم عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق(ع) قال: ((قَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ نَبِيّاً وَلَيْسَ بِإِمَام، حَتّٰى قَالَ اللهُ: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ البقرة: ١٢٤ ، مَنْ عَبَدَ صَنَماً أَوْ

وَثَناً لاَ يَكُونُ إِمَاماً)).

وفي حديث آخر عن عبد الله بن مسعود عن النّبي(ص): ((إِنَّ اللهَ قَالَ لإِبْرَاهِيمَ: لاَ أَعْطِيَكَ عَهْداً لِلظَّالِمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، قَالَ: يَا رَبِّ وَمَنِ الظَّالِمُ مِنْ وَلَدِي الَّذِي لا يَنَالُ عَهْدَكَ؟ قَالَ: مَنْ سَجَدَ لِصَنَم مِنْ دُونِي لاَ أَجْعَلُهُ إِمَاماً أَبَداً، وَلاَ يَصْلَحُ أن يكون إِمَاماً)).

فمن الآية مورد البحث نفهم ضمنياً أنْ الإمام (القائد المعصوم لكل جوانب المجتمع) يجب أن يكون معيناً من قبل الله سبحانه، لما يلي:

أوّلاً: الإمامة ميثاق إلهي، وطبيعي أنْ يكون التعيين من قبل الله، لأنه طرف هذا الميثاق.

ثانياً: الأفراد الذين تلبّسوا بعنوان الظلم، ومارسوا في حياتهم لحظة ظلم بحقّ أنفسهم أو بحقّ الآخرين، كأن تكون لحظة شرك مثلاً، لا يليقون للإمامة، فالإمام يجب أن يكون طيلة عمره معصوماً.

وهل يعلم ذلك في نفوس الأفراد إلاَّ الله؟!

ولو أردنا بهذا المعيار أنْ نعيّن خليفة لرسول الله (ص)، فلا يمكن أن يكون غير علي (ع).

جدير بالذكر أن صاحب ((المنار)) نقل عن أبي حنيفة قوله: أن الخلافة لا تليق إلاَّ بالعلويين، ومن هنا أجاز الخروج على حكومة العباسيين، ومن هنا أيضاً رفض منصب القضاء في حكومة خلفاء بني العباس.

ويقول صاحب المنار أيضاً: إنَّ أئمة المذاهب الأربعة كانوا معارضين لحكام زمانهم، وكانوا يعتبرون أولئك الحكام غير لائقين لزعامة المسلمين، لأنهم ظالمون.

جواب عن سؤالين:

١ ـ قلنا في تفسير معنى الإمامة أن عمل الإمامة هو ((الإيصال إلى المطلوب)) و((تنفيذ المناهج الإلهية))، وهنا قد يقول قائل: إنَّ هذا المعنى لم يتحقق في كثير

من الأنبياء، بل لم يتحقق حتى بالنسبة للنبي الخاتم (ص) والأئمة الأطهار في المقياس العام، فقد كان يقف في مقابلهم دوماً أفراد ضالون مضلون.

جواباً على ذلك نقول: تعريفنا لعمل الإمام لا يعني أنْ الإمام يجرّ الأُمّة قسراً نحو الحق، بل إنَّ الأفراد يستطيعون ــ وهم مختارون ــ أن يهتدوا بما يمتلكه الإمام من قوّة ظاهرية وباطنية، على شرط امتلاك هؤلاء الأفراد للّياقة والإستعداد.

وهذا كقولنا الشمس خلقت لإستمرار حياة الموجودات الحيّة، أو أنْ المطر يعمل على إحياء الأرض الميتة، تأثير الشمس والمطر له طابع عام، لكنه لا يصدق إلاَّ في الموجودات المستعدة لقبول هذا التأثير.

٢ ـ التّفسير المذكور للإمام يستدعي أنْ يكون كل إمام نبيّاً ورسولاً أوّلاً، وبعد ذلك يبلغ درجة الإمامة. بينما لم يكن الخلفاء المعصومون لنبيّ الإسلام (ص) كذلك.

نقول في الجواب: لا يلزم أنْ يكون الإمام قد بلغ حتماً منزلة النّبوة والرسالة، فالذي اجتمعت فيه منزلة النّبوة والرسالة والإمامة (مثل النّبي الخاتم) يمكن لخليفته أنْ يواصل طريق الإمامة، وذلك حين تنتفي الحاجة إلى رسالة جديدة كما هو الحال بعد خاتم الأنبياء.

بعباره أُخرى، حين تكون مرحلة إستلام الوحي الإلهي وتبليغ جميع الأحكام قد انتهت وبقيت المرحلة التنفيذية، فإن خليفة النّبي يستطيع أن يواصل الخط التنفيذي، ولا حاجة لأن يكون هذا الخليفة نبياً أو رسولاً.

ورد اسم إبراهيم(ع) في ٦٩ موضعاً من القرآن الكريم، تحدثت عنه آيات تتوزع بين خمس وعشرين سورة. والقرآن يثني كثيراً على هذا النّبي الكريم ويذكره بصفات جليلة عظيمة.

إنه قدوة وأسوة في كل المجالات، ونموذج للإنسان الكامل.

مكانته في سُلّم معرفة الله ... و منطقه الصريح أمام عبدة الأوثان ... ونضاله المرير ضد الجبابرة ... وتضحياته على طريق الله، وصموده الغريب أمام عواصف الحوادث والإختبارات الصعبة ... كل واحدة من هذه الصفات تشكل النموذج

الأعلى للسائرين على طريق التوحيد.

إبراهيم كما يصفه القرآن من ﴿ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾الصافات: ١٠٥، ومن﴿ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ النحل: ١٢٢، ومن ﴿ قَانِتًا ﴾النحل: ١٢٠ ﴿ قَٰنِتِينَ ﴾البقرة: ٢٣٨، ومن ﴿ صِدِّيقًا ﴾مريم: ٤١، و﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾التوبة: ١١٤، و﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾النجم: ٣٧، ذو سخاء عظيم وشجاعة منقطعة النظير.

. الفخر الرازي:

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما استقصى في شرح وجوه نعمه على بني إسرائيل ثم في شرح قبائحهم في أديانهم وأعمالهم وختم هذا الفصل بما بدأ به وهو قوله:﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ شرع سبحانه ههنا في نوع آخر من البيان وهو أن ذكر قصة إبراهيم (عليه السلام) وكيفية أحواله، والحكمة فيه أن إبراهيم (عليه السلام) شخص يعترف بفضله جميع الطوائف والملل، فالمشركين كانوا معترفين بفضله متشرفين بأنهم من أولاده ومن ساكني حرمه وخادمي بيته. وأهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا أيضاً مقرين بفضله متشرفين بأنهم من أولاده، فحكى الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم (عليه السلام) أموراً توجب على المشركين وعلى اليهود والنصارى قبول قول محمد (صلى الله عليه وسلم) والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه، وبيانه من وجوه:

أحدها: أنه تعالى لما أمره ببعض التكاليف فلما وفى بها وخرج عن عهدتها لا جرم نال النبوة والإمامة وهذا مما ينبه اليهود والنصارى والمشركين على أن الخير لا يحصل في الدنيا والآخرة إلاّ بترك التمرد والعناد والانقياد لحكم الله تعالى وتكاليفه. وثانيها: أنه تعالى حكى عنه أنه طلب الإمامة لأولاده فقال الله تعالى: ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فدل ذلك على أن منصب الإمامة والرياسة في الدين لا يصل إلى الظالمين،

فهؤلاء متى أرادوا وجدان هذا المنصب وجب عليهم ترك اللجاج والتعصب للباطل. وثالثها: أن الحج من خصائص دين محمد (صلى الله عليه وسلم)، فحكى الله تعالى ذلك عن إبراهيم ليكون ذلك كالحجة على اليهود والنصارى في وجوب الانقياد لذلك. ورابعها: أن القبلة لما حولت إلى الكعبة شق ذلك على اليهود والنصارى، فبين الله تعالى أن هذا البيت قبلة إبراهيم الذي يعترفون بتعظيمه ووجوب الاقتداء به فكان ذلك مما يوجب زوال ذلك الغضب عن قلوبهم. وخامسها: أن من المفسرين من فسر الكلمات التي ابتلى الله تعالى إبراهيم بها بأمور يرجع حاصلها إلى تنظيف البدن وذلك مما يوجب على المشركين اختيار هذه الطريقة لأنهم كانوا معترفين بفضل إبراهيم (عليه السلام) ويوجب عليهم ترك ما كانوا عليه من التلطخ بالدماء وترك النظافة ومن المفسرين من فسر تلك الكلمات بما أن إبراهيم (عليه السلام) صبر على ما ابتلى به في دين الله تعالى وهو النظر في الكواكب والقمر والشمس ومناظرة عبدة الأوثان، ثم الانقياد لأحكام الله تعالى في ذبح الولد والإلقاء في النار، وهذا يوجب على هؤلاء اليهود والنصارى والمشركين الذين يعترفون بفضله أن يتشبهوا به في ذلك ويسلكوا طريقته في ترك الحسد والحمية وكراهة الانقياد لمحمد (صلى الله عليه وسلم)، فهذه الوجوه التي لأجلها ذكر الله تعالى قصة إبراهيم (عليه السلام).

واعلم أنه تعالى حكى عن إبراهيم (عليه السلام) أموراً يرجع بعضها إلى الأمور الشاقة التي كلفه بها، وبعضها يرجع إلى التشريفات العظيمة التي خصه الله بها، ونحن نأتي على تفسيرها إن شاء الله تعالى، وهذه الآية دالة على تكليف حصل بعده تشريف.

أما التكليف فقوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾.

واختلف المفسرون في أن ظاهر اللفظ هل يدل على تلك الكلمات أم لا؟ فقال بعضهم: اللفظ يدل عليها وهي التي ذكرها الله تعالى من الإمامة وتطهير البيت ورفع قواعده والدعاء بإبعاث محمد (صلى الله عليه وسلم)، فإن هذه الأشياء أمور شاقة، أما الإمامة فلأن المراد منها ههنا هو النبوة، وهذا التكليف يتضمن مشاق

عظيمة، لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) يلزمه أن يتحمل جميع المشاق والمتاعب في تبليغ الرسالة، وأن لا يخون في أداء شيء منها، ولو لزمه القتل بسبب ذلك ولا شك أن ذلك من أعظم المشاق، ولهذا قلنا: إن ثواب النبي أعظم من ثواب غيره، وأما بناء البيت وتطهيره ورفع قواعده، فمن وقف على ما روي في كيفية بنائه عرف شدة البلوى فيه، ثم أنه يتضمن إقامة المناسك، وقد امتحن الله الخليل (عليه الصلاة والسلام) بالشيطان في الموقف لرمي الجمار وغيره، وأما اشتغاله بالدعاء في أن يبعث الله تعالى محمداً (صلى الله عليه وسلم) في آخر الزمان، فهذا مما يحتاج إليه إخلاص العمل لله تعالى، وإزالة الحسد عن القلب بالكلية، فثبت أن الأمور المذكورة عقيب هذه الآية: تكاليف شاقة شديدة، فأمكن أن يكون المراد من ابتلاء الله تعالى إياه بالكلمات هو ذلك، ثم الذي يدل على أن المراد ذلك أنه عقبه بذكره من غير فصل بحرف من حروف العطف فلم يقبل، وقال: إني جاعلك للناس إماماً، بل قال:﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ ﴾فدل هذا على أن ذلك الابتلاء ليس إلاّ التكليف بهذه الأمور المذكورة، واعترض القاضي على هذا القول فقال: هذا إنما يجوز لو قال الله تعالى: وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمها إبراهيم، ثم أنه تعالى قال له بعد ذلك: إني جاعلك للناس إماماً فأتمهن، إلاّ أنه ليس كذلك، بل ذكر قوله: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ بعد قوله: ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ وهذا يدل على أنه تعالى امتحنه بالكلمات وأتمها إبراهيم، ثم أنه تعالى قال له بعد ذلك: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ ويمكن أن يجاب عنه بأنه ليس المراد من الكلمات الإمامة فقط، بل الإمامة وبناء البيت وتطهيره والدعاء في بعثة محمد (صلى الله عليه وسلم)، كأن الله تعالى ابتلاه بمجموع هذه الأشياء، فأخبر الله تعالى عنه أنه ابتلاه بأمور على الإجمال، ثم أخبر عنه أنه أتمها، ثم عقب ذلك بالشرح والتفصيل، وهذا مما لا يعد فيه. القول الثاني: أن ظاهر الآية لا دلالة فيه على المراد بهذه الكلمات وهذا القول يحتمل وجهين، أحدهما: بكلمات كلفه الله بهن، وهي أوامره ونواهيه فكأنه تعالى قال: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ ﴾ مما شاء كلفه بالأمر بها. والوجه الثاني: بكلمات تكون من إبراهيم يكلم بها قومه، أي يبلغهم

إياها، والقائلون بالوجه الأول اختلفوا في أن ذلك التكليف بأي شيء كان على أقوال. أحدها: قال ابن عباس: هي عشر خصال كانت فرضاً في شرعه وهي سنة في شرعنا، خمس في الرأس وخمس في الجسد، أما التي في الرأس: فالمضمضة، والإستنشاق وفرق الرأس، وقص الشارب، والسواك، وأما التي في البدن: فالختان، وحلق العانة، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، والاستنجاء بالماء. وثانيها: قال بعضهم: ابتلاه بثلاثين خصلة من خصال الإسلام، عشر منها في سورة براءة: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ﴾ التوبة: ١١٢ إلى آخر الآية، وعشر منها في سورة الأحزاب: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴾ الأحزاب: ٣٥ إلى آخر الآية، وعشر منها في المؤمنون: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ المؤمنون: ١ إلى قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ المؤمنون: ١٠ وروى عشر في: ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ ﴾ المعارج: ١ إلى قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ المعارج: ٣٤ فجعلها أربعين سهماً عن ابن عباس. وثالثها: أمره بمناسك الحج، كالطواف والسعي والرمي والإحرام وهو قول قتادة وابن عباس. ورابعها: ابتلاه بسبعة أشياء: بالشمس، والقمر، والكواكب، والختان على الكبر، والنار، وذبح الولد، والهجرة، فوفى بالكل فلهذا قال الله تعالى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ النجم: ٣٧ عن الحسن. وخامسها: أن المراد ما ذكره في قوله: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ البقرة: ١٣١. وسادسها: المناظرات الكثيرة في التوحيد مع أبيه وقومه ومع نمرود والصلاة والزكاة والصوم، وقسم الغنائم، والضيافة، والصبر عليها، قال القفال رحمه الله: وجملة القول أن الابتلاء يتناول إلزام كل ما في فعله كلفة شدة ومشقة، فاللفظ يتناول مجموع هذه الأشياء ويتناول كل واحد منها، فلو ثبتت الرواية في الكل وجب القول بالكل، ولو ثبتت الرواية في البعض دون البعض فحينئذ يقع التعارض بين هذه الروايات، فوجب التوقف والله أعلم.

وقال القاضي: هذا الابتلاء إنما كان قبل النبوة، لأن الله تعالى نبه على أن قيامه (عليه الصلاة والسلام) بهن كالسبب لأن يجعله الله إماماً، والسبب مقدم على المسبب، فوجب كون هذا الابتلاء متقدماً في الوجود على صيرورته إماماً وهذا أيضاً ملائم لقضايا العقول، وذلك لأن الوفاء من شرائط النبوة لا يحصل إلاّ بالإعراض

عن جميع ملاذ الدنيا وشهواتها وترك المداهنة مع الخلق وتقبيح ما هم عليه من الأديان الباطلة والعقائد الفاسدة، وتحمل الأذى من جميع أصناف الخلق، ولا شك أن هذا المعنى من أعظم المشاق وأجل المتاعب، ولهذا السبب يكون الرسول (عليه الصلاة والسلام) أعظم أجراً من أمته، وإذا كان كذلك فالله تعالى ابتلاه بالتكاليف الشاقة، فلما وفى (عليه الصلاة والسلام) بها لا جرم أعطاه خلعة النبوة والرسالة، وقال آخرون: إنه بعد النبوة لأنه (عليه الصلاة والسلام) لا يعلم كونه مكلفاً بتلك التكاليف إلاّ من الوحي، فلا بد من تقدم الوحي على معرفته بكونه كذلك، أجاب القاضي عنه بأنه يحتمل أنه تعالى أوحى إليه على لسان جبريل (عليه السلام) بهذه التكاليف الشاقة، فلما تمم ذلك جعله نبياً مبعوثاً إلى الخلق، إذا عرفت هذه المسألة فنقول قال القاضي: يجوز أن يكون المراد بالكلمات، ما ذكره الحسن من حديث الكوكب والشمس والقمر، فإنه (عليه الصلاة والسلام) ابتلاه الله بذلك قبل النبوة، أما ذبح الولد والهجرة والنار فكل ذلك كان بعد النبوة، وكذا الختان، فإنه (عليه السلام) يروي أنه ختن نفسه وكان سنه مائة وعشرين سنة، ثم قال: فإن قامت الدلالة السمعية القاهرة على أن المراد من الكلمات هذه الأشياء كان المراد من قوله: ﴿أَتَمَّهُنَّ﴾ أنه سبحانه علم من حاله أنه يتمهن ويقوم بهن بعد النبوة فلا جرم أعطاه خلعة الإمامة والنبوة.

أما قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فالإمام اسم من يؤتم به كالإزار لما يؤتزر به، أي يأتمون بك في دينك.وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال أهل التحقيق: المراد من الإمام ههنا النبي ويدل عليه وجوه. أحدها: أن قوله: ﴿لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ يدل على أنه تعالى جعله إماماً لكل الناس والذي يكون كذلك لا بد وأن يكون رسولاً من عند الله مستقلاً بالشرع لأنه لو كان تبعاً لرسول آخر لكان مأموماً لذلك الرسول لا إماماً له، فحينئذ يبطل العموم. وثانيها: أن اللفظ يدل على أنه إمام في كل شيء والذي يكون كذلك لا بد وأن يكون نبياً. وثالثها: أن الأنبياء (عليهم السلام) أئمة من حيث يجب على الخلق اتباعهم، قال الله

تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾الأنبياء: ٧٣ والخلفاء أيضاً أئمة لأنهم رتبوا في المحل الذي يجب على الناس اتباعهم وقبول قولهم وأحكامهم والقضاة والفقهاء أيضاً أئمة لهذا المعنى، والذي يصلي بالناس يسمى أيضاً إماماً لأن من دخل في صلاته لزمه الائتمام به. قال (عليه الصلاة والسلام): « إنما جعل الإمام إماماً ليؤتم به فإذا ركع فاركعوا وإذا سجد فاسجدوا ولا تختلفوا على إمامكم» فثبت بهذا أن اسم الإمام لمن استحق الاقتداء به في الدين وقد يسمى بذلك أيضاً من يؤتم به في الباطل، قال الله تعالى:﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾القصص: ٤١، إلاّ أن اسم الإمام لا يتناوله على الإطلاق بل لا يستعمل فيه إلا مقيداً، فإنه لما ذكر أئمة الضلال قيده بقوله تعالى:﴿ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ كما أن اسم الإله لا يتناول إلا المعبود الحق، فأما المعبود الباطل فإنما يطلق عليه اسم الإله مع القيد، قال الله تعالى:﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾هود: ١٠١ ، وقال: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾طه: ٩٧، إذا ثبت أن اسم الإمام يتناول ما ذكرناه، وثبت أن الأنبياء في أعلى مراتب الإمامة وجب حمل اللفظ ههنا عليه، لأن الله تعالى ذكر لفظ الإمام ههنا في معرض الامتنان، فلا بد وأن تكون تلك النعمة من أعظم النعم ليحسن نسبة الامتنان فوجب حمل هذه الإمامة على النبوة.

المسألة الثانية: أن الله تعالى لما وعده بأن يجعله إماماً للناس حقق الله تعالى ذلك الوعد فيه إلى قيام الساعة، فإن أهل الأديان على شدة اختلافها ونهاية تنافيها يعظمون إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) ويتشرفون بالانتساب إليه إما في النسب وإما في الدين والشريعة حتى إن عبدة الأوثان كانوا معظمين لإبراهيم (عليه السلام)، وقال الله تعالى في كتابه: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ النحل: ١٢٣ وقال: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾البقرة: ١٣٠ وقال في آخر سورة الحج: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾الحج: ٧٨وجميع أمة محمد (عليه الصلاة والسلام) يقولون في آخر الصلاة وارحم محمداً وآل محمد كما صليت وباركت وترحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم.

المسألة الثالثة: القائلون بأن الإمام لا يصير إماماً إلاّ بالنص تمسكوا بهذه الآية فقالوا:إنه تعالى بين أنه إنما صار إماماً بسبب التنصيص على إمامته ونظيره قوله تعالى:﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾البقرة: ٣٠ فبين أنه لا يحصل له منصب الخلافة إلاّ بالتنصيص عليه وهذا ضعيف لأنا بينا أن المراد بالإمامة ههنا النبوة، ثم إن سلمنا أن المراد منها مطلق الإمامة لكن الآية تدل على أن النص طريق الإمامة وذلك لا نزاع فيه، إنما النزاع في أنه هل تثبت الإمامة بغير النص، وليس في هذه الآية تعرض لهذه المسألة لا بالنفي ولا بالإثبات.

المسألة الرابعة: قوله:﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ يدل على أنه (عليه السلام) كان معصوماً عن جميع الذنوب لأن الإمام هو الذي يؤتم به ويقتدى، فلو صدرت المعصية منه لوجب علينا الاقتداء به في ذلك، فيلزم أن يجب علينا فعل المعصية وذلك محال لأن كونه معصية عبارة عن كونه ممنوعاً من فعله وكونه واجباً عبارة عن كونه ممنوعاً من تركه والجميع محال.

أما قوله:﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: الذرية: الأولاد وأولاد الأولاد للرجل وهو من ذرأ الله الخلق وتركوا همزها للخفة كما تركوا في البرية وفيه وجه آخر وهوأن تكون منسوبة إلى الذر.

المسألة الثانية: قوله؛ ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ عطف على الكاف كأنه قال: وجاعل بعض ذريتي كما يقال لك: سأكرمك، فتقول: وزيداً.

المسألة الثالثة: قال بعضهم: إنه تعالى أعلمه أن في ذريته أنبياء فأراد أن يعلم هل يكون ذلك في كلهم أو في بعضهم وهل يصلح جميعهم لهذا الأمر؟ فأعلمه الله تعالى أن فيهم ظالماً لا يصلح لذلك وقال آخرون: إنه (عليه السلام) ذكر ذلك على سبيل الاستعلام ولما لم يعلم على وجه المسألة، فأجابه الله تعالى صريحاً بأن النبوة لا تنال الظالمين منهم، فإن قيل: هل كان إبراهيم (عليه السلام) مأذوناً في قوله:﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ أو لم يكن مأذوناً فيه؟ فإن أذن الله تعالى في هذا الدعاء فلم رد دعاءه؟ وإن لم يأذن له فيه كان ذلك ذنباً، قلنا: قوله:﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ يدل على أنه عليه السلام

طلب أن يكون بعض ذريته أئمة للناس، وقد حقق الله تعالى إجابة دعائه في المؤمنين من ذريته كاسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وموسى وهرون وداود وسليمان وأيوب ويونس وزكريا ويحيى وعيسى وجعل آخرهم محمداً (صلى الله عليه وسلم) من ذريته الذي هو أفضل الأنبياء والأئمة (عليهم السلام).

أما قوله تعالى:﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾البقرة: ١٢٤ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة وحفص عن عاصم:﴿ عَهْدِى ﴾ بإسكان الياء، والباقون بفتحها، وقرأ بعضهم:﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي من كان ظالماً من ذريتك فإنه لا ينال عهدي.

المسألة الثانية: ذكروا في العهد وجوهاً. أحدها: أن هذا العهد هو الإمامة المذكورة فيما قبل، فإن كان المراد من تلك الإمامة هو النبوة فكذا وإلاّ فلا. وثانيها:﴿ عَهْدِى ﴾ أي رحمتي عن عطاء. وثالثها: طاعتي عن الضحاك. ورابعها: أماني عن أبي عبيد، والقول الأول أولى لأن قوله:﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ طلب لتلك الإمامة التي وعده بها بقوله:﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ فقوله:﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾لا يكون جواباً عن ذلك السؤال إلاّ إذا كان المراد بهذا العهد تلك الإمامة.

المسألة الثالثة: الآية دالة على أنه تعالى سيعطي بعض ولده ما سأل، ولولا ذلك لكان الجواب: لا، أو يقول: لا ينال عهدي ذريتك، فإن قيل: أفما كان إبراهيم (عليه السلام) عالماً بأن النبوة لا تليق بالظالمين، قلنا: بلى، ولكن لم يعلم حال ذريته، فبين الله تعالى أن فيهم من هذا حاله وأن النبوة إنما تحصل لمن ليس بظالم.

المسألة الرابعة: الروافض احتجوا بهذه الآية على القدح في إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما من ثلاثة أوجه. الأول: أن أبا بكر وعمر كانا كافرين، فقد كانا حال كفرهما ظالمين، فوجب أن يصدق عليهما في تلك الحالة أنهما لا ينالان عهد الإمامة البتة، وإذا صدق عليهما في ذلك الوقت أنهما لا ينالان عهد الإمامة البتة ولا في شيء من الأوقات ثبت أنهما لا يصلحان للإمامة. الثاني: أن من كان مذنباً في الباطن كان من الظالمين، فإذن ما لم يعرف أن أبا بكر وعمر ما كانا من الظالمين المذنبين ظاهراً

وباطناً وجب أن لا يحكم بإمامتهما وذلك إنما يثبت في حق من تثبت عصمته ولما لم يكونا معصومين بالإتفاق وجب أن لا تتحقق إمامتهما البتة. الثالث: قالوا: كانا مشركين، وكل مشرك ظالم والظالم لا يناله عهد الإمامة فيلزم أن لا ينالهما عهد الإمامة، أما أنهما كانا مشركين فبالاتفاق، وأما أن المشرك ظالم فلقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾لقمان: ١٣ وأما أن الظالم لا يناله عهد الإمامة فلهذه الآية، لا يقال إنهما كانا ظالمين حال كفرهما، فبعد زوال الكفر لا يبقى هذا الاسم لأنا نقول الظالم من وجد منه الظلم، وقولنا: وجد منه الظلم أعم من قولنا وجد منه الظلم في الماضي أو في الحال بدليل أن هذا المفهوم يمكن تقسيمه إلى هذين القسمين، ومورد التقسيم بالتقسيم بالقسمين مشترك بين القسمين وما كان مشتركاً بين القسمين لايلزم انتفاؤه لانتفاء أحد القسمين، فلا يلزم من نفى كونه ظالماً في الحال نفي كونه ظالماً والذي يدل عليه نظراً إلى الدلائل الشرعية أن النائم يسمى مؤمناً والإيمان هو التصديق والتصديق غير حاصل حال كونه نائماً، فدل على أنه يسمى مؤمناً لأن الإيمان كان حاصلاً قبل، وإذا ثبت هذا وجب أن يكون ظالماً لظلم وجد من قبل، وأيضاً فالكلام عبارة عن حروف متوالية، والمشي عبارة عن حصولات متوالية في أحياز متعاقبة، فمجموع تلك الأشياء البتة لا وجود لها، فلو كان حصول المشتق منه شرطاً في كون الاسم المشتق حقيقة وجب أن يكون اسم المتكلم والماشي وأمثالهما حقيقة في شيء أصلاً، وأنه باطل قطعاً فدل هذا على أن حصول المشتق منه ليس شرطاً لكون الاسم المشتق حقيقة؟ والجواب: كل ما ذكرتموه معارض، بما أنه لو حلف لا يسلم على كافر فسلم على إنسان مؤمن في الحال إلاّ أنه كان كافراً قبل بسنين متطاولة فإنه لا يحنث، فدل على ما قلناه، ولأن التائب عن الكفر لا يسمى كافراً والتائب عن المعصية لا يسمى عاصياً، فكذا القول في نظائره، ألا ترى إلى قوله: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾هود: ١١٣، فإنه نهى عن الركون إليهم حال إقامتهم على الظلم، وقوله: ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾التوبة: ٩١، معناه: ما أقاموا على الإحسان، على أنا بينا أن المراد من الإمامة في هذه الآية:النبوة، فمن كفر بالله طرفة عين فإنه لا يصلح

للنبوة.

المسألة الخامسة: الآية تدل على عصمة الأنبياء من وجهين. الأول: أنه قد ثبت أن المراد من هذا العهد: الإمامة. ولا شك أن كل نبي إمام، فإن الإمام هو الذي يؤتم به، والنبي أولى الناس، وإذا دلت الآية على أن الإمام لا يكون فاسقاً، فبأن تدل على أن الرسول لا يجوز أن يكون فاسقاً فاعلاً للذنب والمعصية أولى. الثاني: قال: ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فهذا العهد إن كان هو النبوة؛ وجب أن تكون لا ينالها أحد من الظالمين وإن كان هو الإمامة، فكذلك لأن كل نبي لا بد وأن يكون إماماً يؤتم به، وكل فاسق ظالم لنفسه فوجب أن لا تحصل النبوة لأحد من الفاسقين والله أعلم.

ـ الطباطبائي:

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

شروع بجمل من قصص إبراهيم (عليه السلام) وهو كالمقدمة والتوطئة لآيات تغيير القبلة وآيات أحكام الحج، وما معها من بيان حقيقة الدين الحنيف الإسلامي بمراتبها: من أصول المعارف، والأخلاق، والأحكام الفرعية الفقهية جملاً، والآيات مشتملة على قصة اختصاصه تعالى إياه بالإمامة وبنائه الكعبة ودعوته بالبعثة.

فقوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ ﴾ إلخ، إشارة إلى قصة اعطائه الإمامة وحبائه بها، والقصة إنما وقعت في أواخر عهد إبراهيم (عليه السلام) بعد كبره وتولد إسماعيل، وإسحق له وإسكانه إسماعيل وأمه بمكة، كما تنبه به بعضهم أيضاً، والدليل على ذلك قوله (عليه السلام) على ما حكاه الله سبحانه بعد قوله تعالى له: ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ ﴾، فإنه (عليه السلام) قبل مجيء الملائكة ببشارة إسماعيل وإسحق، ما كان يعلم ولا يظن أن سيكون له ذرية من بعده حتى أنه بعد ما بشرته الملائكة بالاولاد خاطبهم بما ظاهره اليأس والقنوط كما قال تعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾

﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴾ الحجر: ٥١ - ٥٥ ، وكذلك زوجته على ما حكاه الله تعالى في قصة بشارته أيضاً إذ قال تعالى: ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ هود: ٧١ - ٧٣ ، وكلامهما كما ترى يلوح منه آثار اليأس والقنوط ولذلك قابلته الملائكة بنوع كلام فيه تسليتهما وتطييب أنفسهما فما كان هو ولا أهله يعلم أن سيرزق ذرية، وقوله (عليه السلام): ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾، بعد قوله تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾، قول من يعتقد لنفسه ذرية، وكيف يسع من له أدنى دربة بأدب الكلام وخاصة مثل إبراهيم الخليل في خطاب يخاطب به ربه الجليل أن يتفوه بما لا علم له به؟ ولو كان ذلك لكان من الواجب أن يقول: ومن ذريتي إن رزقتني ذرية أو ما يؤدى هذا المعنى فالقصة واقعة كما ذكرنا في أُواخر عهد إبراهيم بعد البشارة.

على أن قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾، يدل على أن هذه الإمامة الموهوبة إنما كانت بعد ابتلائه بما ابتلاه الله به من الامتحانات وليست هذه إلاّ أنواع البلاء التي ابتلى (عليه السلام) بها في حياته، وقد نص القرآن على أن من أوضحها بلاء قضية ذبح إسماعيل قال تعالى:﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾الصافات: ١٠٢، إلى ان قال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾الصافات: ١٠٦.

والقضية إنما وقعت في كبر إبراهيم، كما حكى الله تعالى عنه من قوله:﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾إبراهيم: ٣٩ .

ولنرجع إلى الفاظ الآية فقوله: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ ﴾، الإبتلاء والبلاء بمعنى واحد تقول: ابتليته وبلوته بكذا أي امتحنته واختبرته، إذا قدمت إليه أمراً أو أوقعته في حدث فاختبرته بذلك واستظهرت ما عنده من الصفات النفسانية الكامنة عنده

كالإطاعة والشجاعة والسخاء والعفة والعلم والوفاء أو مقابلاتها، ولذلك لا يكون الإبتلاء إلا بعمل فإن الفعل هو الذى يظهر به الصفات الكامنة من الإنسان دون القول الذي يحتمل الصدق والكذب قال تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾القلم: ١٧، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾البقرة: ٢٤٩ .

فتعلق الابتلاء، في الآية بالكلمات إن كان المراد بها الأقوال إنما هو من جهة تعلقها بالعمل وحكايتها عن العهود والأوامر المتعلقة بالفعل كقوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾البقرة: ٨٣ ، أي عاشروهم معاشرة جميلة وقوله: بكلمات فأتمهن، الكلمات وهي جمع كلمة وإن أطلقت في القرآن على العين الخارجي دون اللفظ والقول، كقوله تعالى: ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾آل عمران: ٤٥، إلاّ أن ذلك بعناية إطلاق القول كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾آل عمران: ٥٩.

وجميع ما نسب إليه تعالى من الكلمة في القرآن أُريد بها القول كقوله تعالى: ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ﴾الأنعام: ٣٤، وقوله: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ يونس: ٦٤، وقوله: ﴿ يُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾الأنفال: ٧، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾يونس: ٩٦، وقوله: ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ ﴾الزمر: ٧١، وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾غافر: ٦، وقوله: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةُ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾الشورى: ١٤، وقوله: ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾التوبة: ٤٠، وقوله: ﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴾ص: ٨٤، وقوله: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾النحل:٤٠، فهذه ونظائرها أريد بها القول بعناية أن القول توجيه ما يريد المتكلم إعلامه المخاطب ما عنده كما في الإخبار أو لغرض تحميله عليه كما في الإنشاء ولذلك ربما تتصف في كلامه تعالى بالتمام كقوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۖ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾الأنعام: ١١٥، وقوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾الأعراف: ١٣٧ كأن الكلمة إذا صدرت عن قائلها فهي ناقصة بعد، لم تتم، حتى تلبس لباس العمل وتعود صدقاً.

وهذا لا ينافي كون قوله تعالى فعله، فإن الحقائق الواقعية لها حكم، وللعنايات الكلامية اللفظية حكم آخر، فما يريد الله سبحانه إظهاره لواحد من أنبيائه، أو غيرهم بعد خفائه، أو يريد تحميله على أحد قول وكلام له لاشتماله على غرض القول والكلام وتضمنه غاية الخبر والنبأ، والأمر والنهي، وإطلاق القول والكلمة على مثل ذلك شائع في الاستعمال إذا اشتمل على ما يؤديه القول والكلمة، تقول: لأفعلن كذا وكذا، لقول قلته وكلمة قدمتها، ولم تقل قولاً، ولا قدمت كلمة، وإنما عزمت عزيمة لا تنقضها شفاعة شفيع أو وهن إرادة، ومنه قول عنترة:

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحي

يريد بالقول توطين نفسه على الثبات والعزم، على لزومها مكانها لتفوز بالحمد إن قتل، وبالاستراحة إن غلب.

إذا عرفت ذلك ظهر لك أن المراد بقوله تعالى، بكلمات، قضايا ابتلى بها وعهود إلهية أريدت منه، كابتلائه بالكواكب والأصنام ، والنار والهجرة وتضحيته بابنه وغير ذلك ولم يُبيّن في الكلام ما هي الكلمات؛ لأن الغرض غير متعلق بذلك، نعم قوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، من حيث ترتبه على الكلمات تدل على أنها كانت أموراً تثبت بها لياقته، (عليه السلام) لمقام الإمامة.

فهذه هي الكلمات وأما إتمامهن فإن كان الضمير في قوله تعالى: أتمهن راجعاً إلى إبراهيم كان معنى إتمامهن إتيانه (عليه السلام) ما أريد منه، وامتثاله لما أمر به، وإن كان الضمير راجعاً إليه تعالى كما هو الظاهر كان المراد توفيقه لما أريد منه، ومساعدته على ذلك، وأما ما ذكره بعضهم: أن المراد بالكلمات قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، إلى آخر الآيات، فمعنى لا ينبغي الركون إليه إذ لم يعهد في القرآن إطلاق الكلمات على جمل الكلام.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، أي مقتدى يقتدى بك الناس، وتبعونك في أقوالك وأفعالك، فالإمام هو الذي يقتدي ويأتم به الناس، ولذلك ذكر عدة من المفسرين أن المراد به النبوة، لأن النبي يقتدي به أمته في دينهم، قال تعالى: ﴿ وَمَآ

﴿أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ النساء: ٦٤، لكنه في غاية السقوط.

أما أولاً: فلان قوله: إماماً، مفعول ثان لعامله الذي هو قوله: جاعلك واسم الفاعل لا يعمل إذا كان بمعنى الماضي، وانما يعمل إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال فقوله:﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾، وعد له (عليه السلام) بالإمامة في ما سيأتي، مع أنه وحي لا يكون إلاّ مع نبوة، فقد كان (عليه السلام) نبياً قبل تقلده الإمامة فليست الإمامة في الآية بمعنى النبوة (ذكره بعض المفسرين).

وأما ثانياً: فلأنا بيّنا في صدر الكلام: أن قصة الإمامة، إنما كانت في أُواخر عهد إبراهيم (عليه السلام) بعد مجئ البشارة له بإسحق وإسماعيل، وإنما جاءت الملائكة بالبشارة في مسيرهم إلى قوم لوط وإهلاكهم، وقد كان إبراهيم حينئذٍ نبياً مرسلاً، فقد كان نبياً قبل أن يكون إماماً، فإمامته غير نبوته.

ومنشأ هذا التفسير وما يشابهه الابتذال الطارئ على معاني الألفاظ الواقعة في القرآن الشريف في أنظار الناس من تكرر الاستعمال بمرور الزمن ومن جملة تلك الالفاظ لفظ الإمامة، ففسره قوم: بالنبوة والتقدم والمطاعية مطلقاً، وفسره آخرون بمعنى الخلافة أو الوصاية، أو الرئاسة في أمور الدين والدنيا ـ وكل ذلك لم يكن ـ فإن النبوة معناها: تحمل النبأ من جانب الله، والرسالة معناها تحمل التبليغ، والمطاعية والإطاعة قبول الإنسان ما يراه أو يأمره غيره وهو من لوازم النبوة والرسالة، والخلافة نحو من النيابة، وكذلك والوصاية، والرئاسة نحو من المطاعية وهو مصدرية الحكم في الإجتماع وكل هذه المعاني غير معنى الإمامة التي هي كون الإنسان بحيث يقتدى به غيره بأن يطبق أفعاله وأقواله على أفعاله وأقواله بنحو التبعية، ولا معنى لان يقال لنبي من الأنبياء مفترض الطاعة إني جاعلك للناس نبياً، أو مطاعاً فيما تبلغه بنبوتك، أو رئيساً تأمر وتنهى في الدين، أو وصياً، أو خليفة في الأرض تقضي بين الناس في مرافعاتهم بحكم الله.

وليست الإمامة تخالف الكلمات السابقة وتختص بموردها بمجرد العناية اللفظية فقط، إذ لا يصح أن يقال لنبي ـ من لوازم نبوته كونه مطاعاً بعد نبوته ـ

إني جاعلك مطاعاً للناس بعد ما جعلتك كذلك، ولا يصح ان يقال له ما يؤل إليه معناه وان اختلف بمجرد عناية لفظية، فإن المحذور هو المحذور، وهذه المواهب الإلهية ليست مقصورة على مجرد المفاهيم اللفظية، بل دونها حقائق من المعارف الحقيقية، فلمعنى الإمامة حقيقة وراء هذه الحقائق.

والذي نجده في كلامه تعالى: إنه كلما تعرض لمعنى الإمامة تعرض معها للهداية تعرض التفسير، قال تعالى في قصص إبراهيم (عليه السلام): ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾الأنبياء: ٧٢ - ٧٣ ، وقال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾السجدة: ٢٤، فوصفها بالهداية وصف تعريف، ثم قيدها بالأمر، فبين أن الإمامة ليست مطلق الهداية، بل هي الهداية التي تقع بأمر الله، وهذا الامر هو الذي بين حقيقته في قوله: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾يس: ٨٢ - ٨٣ ، وقوله: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾القمر: ٥٠، وسنبين في الآيتين أن الأمر الإلهي وهو الذي تسميه الآية المذكورة بالملكوت وجه آخر للخلق، يواجهون به الله سبحانه، طاهر مطهر من قيود الزمان والمكان، خال من التغير والتبدل وهو المراد بكلمة ـ كن الذي ليس إلاّ وجود الشيء العيني، وهو قبال الخلق الذي هو وجه آخر من وجهي الأشياء فيه التغير والتدريج والإنطباق على قوانين الحركة والزمان، وليكن هذا عندك على إجماله حتى يأتيك تفصيله إن شاء الله العزيز.

وبالجملة فالإمام هادٍ يهدي بأمر ملكوتي يصاحبه، فالإمامة بحسب الباطن نحو ولاية للناس في أعمالهم، وهدايتها إيصالها إياهم إلى المطلوب بأمر الله دون مجرد إراءة الطريق الذي هو شأن النبي والرسول وكل مؤمن يهدي إلى الله سبحانه بالنصح والموعظة الحسنة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾إبراهيم: ٤، وقال تعالى في مؤمن آل فرعون: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ

سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾غافر: ٣٨، وقال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾التوبة: ١٢٢، وسيتضح لك هذا المعنى مزيد اتضاح.

ثم إنه تعالى بين سبب موهبة الإمامة بقوله: ﴿ لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ السجدة: ٢٤ الآية فبيّن أن الملاك في ذلك صبرهم في جنب الله ـ وقد أطلق الصبر ـ فهو في كل ما يبتلي ويمتحن به عبد في عبوديته، وكونهم قبل ذلك موقنين، وقد ذكر في جملة قصص إبراهيم (عليه السلام) قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾الأنعام: ٧٥ ، والآية كما ترى تعطي بظاهرها: أن إراءة الملكوت لإبراهيم كانت مقدمة لإفاضة اليقين عليه، ويتبيّن به أن اليقين لا ينفك عن مشاهدة الملكوت كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾التكاثر: ٦ وقوله تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾المطففين: ١٤ - ٢١ ، وهذه الآيات تدل على أن المقربين هم الذين لا يحجبون عن ربهم بحجاب قلبي وهو المعصية والجهل والريب والشك، فهم أهل اليقين بالله، وهم يشهدون عليين كما يشهدون الجحيم.

وبالجملة فالإمام يجب أن يكون إنساناً ذا يقين مكشوفاً له عالم الملكوت ـ متحققاً بكلمات من الله سبحانه ـ وقد مرّ أن الملكوت هو الأمر الذي هو الوجه الباطن من وجهي هذا العالم، فقوله تعالى: ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾الأنبياء: ٧٣-السجدة: ٢٤، يدل دلالة واضحة على أن كل ما يتعلق به أمر الهداية ـ وهو القلوب والأعمال ـ فللإمام باطنه وحقيقته، ووجهه الأمري حاضر عنده غير غائب عنه، ومن المعلوم أن القلوب والأعمال كسائر الأشياء في كونها ذات وجهين، فالإمام يحضر عنده ويلحق به أعمال العباد، خيرها وشرها، وهو المهيمن على السبيلين جميعاً، سبيل السعادة وسبيل الشقاوة. وقال تعالى أيضاً: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾الإسراء: ٧١،

وسيجيء تفسيره بالإمام الحق دون كتاب الأعمال، على ما يظن من ظاهرها، فالإمام هو الذي يسوق الناس إلى الله سبحانه ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾، كما أنه يسوقهم إليه في ظاهر هذه الحياة الدنيا وباطنها، والآية مع ذلك تفيد أن الإمام لا يخلو عنه زمان من الأزمنة، وعصر من الأعصار، لمكان قوله تعالى: ﴿ كُلَّ أُنَاسٍ ﴾، على ما سيجئ في تفسير الآية من تقريبه.

ثم إن هذا المعنى أعني الإمامة، على شرافته وعظمته، لا يقوم إلاّ بمن كان سعيد الذات بنفسه، إذ الذي ربما تلبس ذاته بالظلم والشقاء، فإنما سعادته بهداية من غيره، وقد قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ﴾يونس: ٣٥. وقد قوبل في الآية بين الهادي إلى الحق وبين غير المهتدي إلاّ بغيره، أعني المهتدي بغيره، وهذه المقابلة تقتضي أن يكون الهادي إلى الحق مهتدياً بنفسه، أن المهتدي بغيره لا يكون هادياً إلى الحق البتة.

ويستنتج من هنا أمران: أحدهما: أن الإمام يجب أن يكون معصوماً عن الضلال و المعصية، وإلاّ كان غير مهتد بنفسه، كما مرّ كما، يدل عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾الأنبياء: ٧٣ فأفعال الإمام خيرات يهتدى إليها لا بهداية من غيره بل باهتداء من نفسه بتأييد إلهي، وتسديد رباني والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾بناء على أن المصدر المضاف يدل على الوقوع، ففرق بين مثل قولنا: وأوحينا إليهم أن افعلوا الخيرات فلا يدل على التحقق والوقوع، بخلاف قوله: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ فهو يدل على أن ما فعلوه من الخيرات إنما هو بوحى باطني وتأييد سماوي، الثاني: عكس الأمر الأول وهو أن من ليس بمعصوم فلا يكون إماماً هادياً إلى الحق البتة.

وبهذا البيان يظهر: أن المراد بالظالمين في قوله تعالى: ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾البقرة: ١٢٤ مطلق من صدر عنه ظلم ما، من شرك أو معصية، وان كان منه في برهة من عمره، ثم تاب وصلح.

وقد سئل أَحد أساتذننا رحمة الله عليه: عن تقريب دلالة على عصمة الإمام.

فأجاب: أن الناس بحسب القسمة العقلية على أربعة أقسام: من كان ظالماً في جميع عمره، ومن لم يكن ظالماً في جميع عمره، ومن هو ظالم في أول عمره دون آخره، ومن هو بالعكس هذا، وإبراهيم (عليه السلام) أجل شأناً من أن يسأل الإمامة للقسم الأول والرابع من ذريته، فبقي قسمان وقد نفى الله أحدهما، وهو الذي يكون ظالماً في أول عمره دون آخره، فبقي الآخر، وهو الذي يكون غير ظالم في جميع عمره إنتهى وقد ظهر مما تقدم من البيان أمور:

الأول: أن الإمامة لمجعولة.

الثاني: أن الإمام يجب أن يكون معصوماً بعصمة إلهية.

الثالث: أن الأرض وفيه الناس، لا تخلو عن إمام حق.

الرابع: أن الإمام يجب أن يكون مؤيداً من عند الله تعالى.

الخامس: أن أعمال العباد غير محجوبة عن علم الإمام.

السادس: أنه يجب أن يكون عالماً بجميع ما يحتاج إليه الناس في أمور معاشهم ومعادهم.

السابع: أنه يستحيل أن يوجد فيهم من يفوقه في فضائل النفس، فهذه سبعة مسائل هي أمهات مسائل الإمامة، تعطيها الآية الشريفة بما ينضم إليها من الآيات والله الهادي.

فان قلت: لو كانت الإمامة هي الهداية بأمر الله تعالى، وهي الهداية إلى الحق الملازم مع الإهتداء بالذات كما أُستفيد من قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ يونس: ٣٥ الآية كان جميع الأنبياء أئمة قطعاً، لوضوح أن نبوة النبي لا يتم إلاّ باهتداء من جانب الله تعالى بالوحي، من غير أن يكون مكتسباً من الغير، بتعليم أو إرشاد ونحوهما، حينئذ فموهبة النبوة تستلزم موهبة الإمامة، وعاد الإشكال إلى أنفسكم.

قلت: الذي يتحصل من البيان السابق المستفاد من الآية أن الهداية بالحق وهي

الإمامة تستلزم الاهتداء بالحق، وأما العكس وهو أن يكون كل من اهتدى بالحق هادياً لغيره بالحق، حتى يكون كل نبي لاهتدائه بالذات إماماً، فلم يتبيّن بعد، وقد ذكر سبحانه هذا الإهتداء بالحق، من غير أن يقرنه بهداية الغير بالحق في قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾الأنعام: ٨٤ - ٩٠ ، وسياق الآيات كما ترى يعطي أن هذه الهداية أمر ليس من شأنه أن يتغير ويتخلف، وأن هذه الهداية لن ترتفع بعد رسول الله عن أمته، بل عن ذرية إبراهيم منهم خاصة، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾الزخرف: ٢٦ - ٢٨، فأعلم قومه ببرائته في الحال وأخبرهم بهدايته في المستقبل، وهي الهداية بأمر الله حقاً، لا الهداية التي يعطيها النظر والاعتبار، فإنها كانت حاصلة مدلولاً عليها بقوله: ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾الزخرف: ٢٦ - ٢٧ ، ثم أخبر الله: أنه جعل هذه الهداية كلمة باقية في عقب إبراهيم، وهذا أحد الموارد التي أطلق القرآن الكلمة فيها على الأمر الخارجي دون القول، كقوله تعالى: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا ﴾الفتح: ٢٦.

وقد تبيّن بما ذكر: أن الإمامة في ولد إبراهيم بعده، وفي قوله تعالى:﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾البقرة: ١٢٤

إشاره إلى ذلك، فإن إبراهيم (عليه السلام) إنما كان سأل الإمامة لبعض ذريته لا

لجميعهم، فاجيب: بنفيها عن الظالمين من ولده، وليس جميع ولده ظالمين بالضرورة حتى يكون نفيها عن الظالمين نفياً لها عن الجميع، ففيه إجابة لما سأله مع بيان أنها عهد، وعهده تعالى لا ينال الظالمين.

قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، في التعبير إشارة إلى غاية بعد الظالمين عن ساحة العهد الإلهي، فهي من الاستعارة بالكناية.

في الكافي عن الصادق (عليه السلام): إن الله عزّ وجلّ اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، وإن الله اتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، وإن الله اتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، وأن الله اتخذه خليلاً قبل أن يتخذه إماماً، فلما جمع له الأشياء قال: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال (عليه السلام): فمن عظمها في عين إبراهيم قال: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ البقرة: ١٢٤

قال: لا يكون السفيه إمام التقي.

أقول: وروي هذا المعنى أيضاً عنه بطريق آخر وعن الباقر (عليه السلام) بطريق آخر، ورواه المفيد عن الصادق (عليه السلام).

قوله: إن الله اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، يستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ - إلى قوله - مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ الأنبياء: ٥١ - ٥٦، وهو اتخاذ بالعبودية في أول أمر إبراهيم.

واعلم أن اتخاذه تعالى أحداً من الناس عبداً غير كونه في نفسه عبداً، فإن العبدية من لوازم الإيجاد والخلقة، لا ينفك عن مخلوق ذي فهم وشعور، ولا يقبل الجعل والاتخاذ وهو كون الإنسان مثلاً مملوك الوجود لربه، مخلوقاً مصنوعاً له، سواء جرى في حياته على ما يستدعيه مملوكيته الذاتية، واستسلم لربوبية ربه العزيز، أو لم يجر على ذلك، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ مريم: ٩٣، وإن كان إذا لم يجر على رسوم العبودية وسنن الرقية استكباراً في الأرض وعتواً كان من الحري أن لا يسمى عبداً بالنظر إلى الغايات، فإن العبد هو الذي أسلم وجه لربه، وأعطاه تدبير نفسه، فينبغي أن لا يسمى بالعبد إلاّ من

كان عبداً في نفسه وعبداً في عمله، فهو العبد حقيقة، قال تعالى:﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾الفرقان: ٦٣، وعلى هذا فاتخاذه تعالى إنساناً عبداً ـ وهو قبول كونه عبداً والإقبال عليه بالربوبية ـ هو الولاية وهو تولي أمره كما يتولى الرب أمر عبده، والعبودية مفتاح للولاية، كما يدل عليه قوله تعالى:﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾الأعراف: ١٩٦، أي اللائقين للولاية، فأنه تعالى سمى النبي في آيات من كتابه بالعبد، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾الكهف: ١ ، وقال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ ﴾الحديد: ٩، وقال تعالى: ﴿ قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ ﴾الجن: ١٩، فقد ظهر أن الاتخاذ للعبودية هو الولاية.

وقوله (عليه السلام): وإن الله اتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، الفرق بين النبي الرسول على ما يظهر من الروايات المروية عن أئمة أهل البيت: أن النبي هو الذي يرى في المنام ما يوحي به إليه، والرسول هو الذي يشاهد الملك فيكلمة، والذي يظهر من قصص إبراهيم هو هذا الترتيب، قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾مريم: ٤١ - ٤٢، فظاهر الآية أنه (عليه السلام) كان صديقاً نبياً حين يخاطب أباه بذلك، فيكون هذا تصديقاً لما أخبر به إبراهيم (عليه السلام) في أول وروده على قومه: ﴿ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴾الزخرف: ٢٦ - ٢٧، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ ﴾هود: ٦٩، والقصة ـ وهي تتضمن مشاهدة الملك وتكليمه ـ واقعة في حال كبر إبراهيم (عليه السلام) بعد مفارق أباه وقومه.

وقوله (عليه السلام): إن الله اتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، يستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴾النساء: ١٢٥، فإن ظاهره انه إنما اتخذه خليلاً لهذه الملة الحنيفية التي شرعها بأمر ربه إذ المقام مقام بيان شرف ملة إبراهيم الحنيف التي تشرف بسببها إبراهيم (عليه السلام) بالخلة والخليل أخص من الصديق فإن أحد المتحابين يسمى صديقاً إذا صدق في معاشرته

ومصاحبته ثم يصير خليلاً إذا قصر حوائجه على صديقه، والخلة الفقر والحاجة.

وقوله (عليه السلام): وإن الله اتخذه خليلاً قبل أن يتخذه إماماً، إلخ يظهر معناه مما تقدم من البيان.

وقوله: قال لا يكون السفيه إمام التقي إشارة إلى قوله تعالى:﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾البقرة: ١٣٠ - ١٣١، فقد سمى الله سبحانه الرغبة عن ملة إبراهيم وهو الظلم سفهاً، وقابلها بالإصطفاء، وفسّر الإصطفاء بالإسلام، كما يظهر بالتدبّر في قوله: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ﴾ ثم جعل الإسلام والتقوى واحداً أو في مجرى واحد في قوله: ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾آل عمران: ١٠٢، فافهم ذلك.

وعن المفيد عن درست وهشام عنهم (عليه السلام) قال: قد كان إبراهيم نبياً وليس بإمام، حتى قال الله تبارك وتعالى:﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ فقال الله تبارك وتعالى:﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾البقرة: ١٢٤ ، من عبد صنماً أو وثناً أو مثالاً، لا يكون إماماً.

أقول: وقد ظهر معناه مما مرّ.

وفي أمالي الشيخ مسنداً، وعن مناقب ابن المغازلي مرفوعاً عن ابن مسعود عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الآية عن قول الله لإبراهيم: من سجد لصنم دوني لا أجعله إماماً، قال (عليه السلام) وانتهت الدعوة إليّ وإلى أخي علي، لم يسجد أحدنا لصنم قط.

وفي الدر المنثور: أخرج وكيع وابن مردويه عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله: ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾البقرة: ١٢٤ قال: لا طاعة إلاّ في المعروف.

وفي الدرّ المنثور أيضاً: أخرج عبد بن حميد عن عمران بن حصين سمعت النبي يقول: لا طاعة لمخلوق في معصية الله.

أقول: معانيها ظاهرة مما مرّ.

وفي تفسير العيّاشي، بأسانيد عن صفوان الجمّال قال: كنّا بمكة فجرى الحديث في قول الله: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

قال: فأتمهن بمحمد وعلي والائمة من ولد علي في قول الله: ﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ آل عمران: ٣٤.

أقول: والرواية مبنية على كون المراد بالكلمة الإمامة كما فسرت بها في قوله تعالى: ﴿ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ الزخرف: ٢٧ - ٢٨ الآية فيكون معنى الآية: وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ ﴾، هن إمامته، وإمامة إسحق وذريته، وأتمهن بإمامة محمد، والأئمة من أهل بيته من ولد إسماعيل ثم بين الأمر بقوله: ﴿ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ إلى آخر الآية.

التعليق على ما مرّ من التفسير نقول:

تعتبر هذه الفقرة التفسيرية خلافية بإمتياز، حيث انقسم المفسرون إلى اتجاهات ثلاثة:

الأولى: الإمامة هي النبوة حصراً والعصمة لازمة لها، وهذا قول ابن كثير، والقرطبي، والرازي.

الثانية: الإمامة لمن يستحقونها بالعمل والشعور وبالصلاح والإيمان وشرطها عدم الظلم لأن الإمامة ممنوعة على الظالمين. وهذا قول سيد قطب ويعتبر رأيه في هذه المسألة ضبابياً وغير محدد.

الثالثة: الإمامة بمعنى إمامة النبوة والرسالة من ذرية إبراهيم (ع) وهي للنبي (ص) بشكل خاص، وإمامة المسلمين من بعده (ص) هي بالنص عنه (ص) في أهل البيت (ع) والعصمة لازمة لها ومن شروطها. وهذا قول الشيخ مغنية، وفضل الله، والطبرسي، والشيرازي والطباطبائي، واقترب منهم كثيراً الطبري ولكن بدون تحديد حيث قال: هي جعل من الله في محل أوليائه عنده بالتكرمة بالإمامة، لأن الإمامة إنما هي لأوليائه وأهل طاعته.

وعلى كل حال، لن نعلّق على هذه الآراء لأن كل مفسر أجاد وأفاد في بيان مقصوده من هذه المسألة، وللقارئ الكريم حرية اختيار ما يقتنع به ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.